اللقطة **الأخيرة**

اللقطة الأخيرة

ماجد ستارة

ISBN 9789773120221

© Willows House 2021

الطبعـة الأولــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

مراجعة لغوية: محمد عبد العال

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

قصص

ماجد سنّارة

اللقطة الأخيرة

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

إهداء

إلى أحمد أبو العزم:

«حلمنا سويا، لكن روحك كانت أكثر خفة مني فلم تحتمل ثقل هذا العالم السخيف، أفتقدك باتساع الكون يا رفيق التجربة، أيها الخالد في الذاكرة»

الأسانسير

يقف يوسف مع أبويه في مدخل العمارة، يضغط على زر الأسانسير، تنظر له أمه فوزية بقلق، تخبره أنها تريد الصعود على السلم، يرفض طلبها في ضيق، الأب وجيه صامت كعامود الخرسانة.

الأم فوزية:

يا بني أنا ست كبيرة، طول عمري عائشة في الريف، كانت حياتنا بسيطة، أقوم من الفجر، أحلب الجاموسة، وأذهب مع وجيه للأرض.. نعزقها، نبذر الحبوب، نحش البرسيم، ننقي القطن، نجمع البامية، نحصد الغلة أو الأرز، ونرتاح في القيلولة، ننام في المقعد تحت الشمس، وحرارتها تنشف عظمنا.. وبعد العشاء ننام كالخراف، صوت شخيرنا يعلو من التعب، والحياة ماشية.

* * *

يوسف:

يـا أمـي أنتـم عشـتم في مـاء البطيـخ، في نقطـة هامشـية، وأنـا أريـد وضعكـم عـلى السـطر.

* * *

الأب وجيه:

أنـا فاكـر لمـا جبنـا تلفزيـون ١٤ بوصـة، الدنيـا قامـت ولـم تقعـد، كان بيتنـا عامـل مثـل الجامـع لمـا الأهـلي يلعـب أو مـصر.. كنـا فرحانـين، كأننـا دخلنـا الجنـة.. حفلـة موسـيقى، مبـاراة كـرة، فيلـم السـهرة.

لمـا عيـني وقعـت عـلى هنـد رسـتم مـع رشـدي أباظـة وعمـر الشريـف (ينظـر لفوزيـة بخجـل) ولا مؤاخـذة يـا أم يوسـف، قلـت في بـالي أنـا ربنـا رزقـني بفـردة شبشـب، لكـن رضـا الحمـد لله.

تنظر له فوزية في غيظ، وتقول:

سامحني.. أنا كمان قلت ذلك!

يضحكان سوياً.

* * *

يقول يوسف في نفاد صبر:

الأسانسير نزل.. يلا بدل ما الناس تتفرج علينا.

ترد عليه فوزية بنبرة متوسلة:

يا بني السلم أمان.. والطلوع مرة واحدة أضمن من الطلوع في غمضة عين.

يفتح يوسف باب الأسانسير، يجذب أمه رغماً عنها، الأب يتبعهما بلا كلمة.. يقول يوسف وهو يضغط على الدور الحادي عشر:

ماذا أنتظر بعد الثلاثين يا أم يوسف؟!

* * *

يصل الأسانسير الدور الرابع، يبدو الفرح على وجه يوسف، الأب مذهول، والأم ما زالت قلقة، يقول يوسف لأمه:

بذمتك أليس أسرع وأريح؟

تهز الأم رأسها وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، تحس بجسدها يرتعش، رأسها تدور.. يوسف في حالة تيه، يشعر بنفسه، كحاوي، يخرج الأعاجيب من كيسه، والأب يغمض عينيه لحظة، ثم يفتحهما.. يتوقف الأسانسير في الدور السابع فجأة.. قلق يدق القلوب، ترقب.. يقول

يوسف بابتسامة شاحبة:

أكيد حد يريد الصعود معنا.

ترد فوزية بصوت متوتر:

وهو فيه بعد السابع يا بني؟

يكتم يوسف غضبه في جوفه، يحاول فتح باب الأسانسير، يفشل، يصاب بخيبة أمل، يضرب الباب عدة مرات، يقول له وجيه:

لا تتعب نفسك.. حبة ويعمل لوحده!

يلف له يوسف، يشعر أن أباه تعبان في دماغه، فقد القدرة على التمييز، الوضع خطر، ما زال تأنيب فوزية، يسمع صوتها في أذنه، يثقبها: «طول عمرك فاشل يا بن بطني».. يلعن كل شيء في سره، هو في زنقة حقيقية، المخرج منها صعب.. يزعق بعلو صوته على البواب، السكان، الناس.. تقول الأم:

شكلها عمارة مهجورة.

يسكتها يوسف بإشارة من يده، يتهمها بالغباء.. كيف تكون مهجورة وبها أسانسير؟ والناس بالشارع؟

هكذا قال لها.. تبدو على فوزية خيبة الأمل، تشعر بعجز حقيقي، فكرت في القرية، الجاموسة التي باعتها، الأرض

الـتي ضاعـت، الديـون الـتي عليهـا، الأب الصامـت، كل ذلـك لأجـل الحيلـة، لعـب بعقلهـا في كل مـرة، عنـدي مـشروع ابـن حـرام، أخبرتـه أن الحـلال خـير، يلـين قلبهـا.. حـلال.. مكسـبه مضمـون.. والأرض لا تـأتي بهمهـا.. هـي ليسـت حمـل الشـقاء، العظمـة كـبرت.. الأب صامـت كعادتـه.. مـا فيـه الخـير يقدمـه ربنـا..

تقول فوزية:

هذه آخرة من لا يسمع كلام أمه.

أمك، أمك، أمك.. اوعى تزعَّل أمك!.. عقب الأب.

يخبط يوسف دماغه في الأسانسير بغضب، يصرخ في وجهيهما:

أف عليكما.

يـرن التليفـون.. تـراه عينـا يوسـف في الأسانسـير للمـرة الأولى.. يـرد، يسـتمع لصـوت لا يمـيز إن كان لرجـل أو امـرأة، قـال الصـوت:

أنا أراكم من أول لحظة.

يتعجـب ثلاثتهـم، تضـع فوزيـة يدهـا عـلى رأسـها، ينظـر وجيـه إلى الـلا شيء، يبحـث يوسـف عـن كامـيرات في الأسانسـير، لـم يسـتدل عـلى واحـدة.. يحـس بالقلـق الشـديد.. تقـول الأم:

العمارة شكلها مسكونة.

يبتسم وجيه في لا مبالاة:

حتى لو.. لا مفر!

يقول الصوت بصوت تجاوز السماعة ووصل لثلاثتهم:

حتى يصعد الأسانسير لأعلى لا بد أن ينقص منكم واحد.

تصرخ فوزية معترضة، تتحرك بينهما كالمجنونة، تخبرهم أن الهبوط أفضل، يداهمهم الصوت:

الهبوط يعني موتكم جميعاً!

تقع فوزية على الأرض باكية، تنتحب بشدة، تندب حظها، وجيه يخرج عن صمته، يحس باقتراب النهاية، يتمنى لو وضع على رأسه الطين ولم يغادر قريته، يلوم نفسه على سلبيته، يتقنزح كجحش، يمسك يوسف من ياقة قميصه: أنت السبب.

يدفعه يوسف بعصبية، يصرخ فيه، يخبره أنه يستحق الموت، واضع يده في الماء البارد، آخره يسب الدين حين لا يجد في جيبه المال.. يأتيهم الصوت:

اخلعوا ملابسكم كلها الآن.

الصوت آمر، مرعب، لا يقبل أي تفاوض، يحرن وجيه، وتضم فوزية يدها حول صدرها في خوف، يحاول يوسف الاعتراض:

ولكن؟!

يزمجر الصوت:

دقيقة واحدة لتكونوا عرايا وإلا سيسقط الأسانسير.

تجرد يوسف وأبوه من ملابسهما في ومضة برق، ينظران لبعضهما، يكتم يوسف ضحكته، وجيه يلعنه في سره.. فوزية ما تزال ملابسها كاملة، تمضي ثواني.. ترجاها يوسف.. يصمت وجيه ثانية.. تدافع فوزية عن نفسها بشدة: «الشرف».. يفقد يوسف أعصابه، يشد أباه معه، يمزقا ملابس فوزية بصعوبة، تشبثت في الدفاع عن جسدها لآخر لحظة.. تصير مثلما أتت، تطأطئ رأسها.. تبكي في صمت.. يستمعون لضحكات الصوت.

يبدو الخزي في عيني يوسف وأبيه.. القهر على ملامح فوزية.

يقول الصوت:

والآن لا بد أن تكونا اثنين فقط.

يخبرهما الصوت أن مساحة ستنفرج بين الأسانسير والفراغ، لا بد من حشر أحدهم فيها، حتى يسقط للأسفل، فيعلو الآخران لأعلى في نفس اللحظة.

* * *

فوزية في نفسها:

يا خيبتك الثقيلة.. زوجك يعريكِ، وابنك يضحي بكِ.

وجيه في نفسه:

المرأة كبرت.. ولو راح الولد لن تأتي بغيره، لكنها لو راحت فخير منها كثيرات.

يوسف في نفسه:

الأب جبان، والأم متحكمة.. في داهية أي حد، المهم أعيش.

* * *

يقترب وجيه بخطوات ثقيلة من فوزية، تشم فيه رائحة قاتل، يتشجع يوسف هو الآخر ويتبع الأب.. تقوم فوزية على حيلها.. تخمش وجه وجيه، تبصق على يوسف، وتحاول الدفاع عن نفسها.. يقيد وجيه حركتها، ويبدأ يوسف في إدخال قدميها من الفتحة الصغيرة، الأمر صعب.. يغير وضعيات القدم لعدة مرات، فوزية تستغيث، تطلب النجدة.. يدخل يوسف القدمين، السن الحديدي يكشط جلدها.. تصرخ، تأن من الألم ، يحشران الجسد أكثر .. يتمرد عند المؤخرة، يقف يوسف وأباه على كتفيها.. يضغطان بقوة، يغوص أكثر حتى يتوقف أسفل الذقن، دماء تنزف من جسمها.. غليان فيها.. وجع رهيب.. يدوسان على رأسها.. يضغطان

بقسـوة.. يهشـمان الدمـاغ.. تسـقط الأمر وتتفتـت عظامهـا، تتحـول الـرأس لدخـان يغيـم الأسانسـير.. يشـعران بالاختنـاق، احـتراق في الرأسـين، يـأتي الصـوت مـن أعـلى سـاخراً:

والآن!

يتجهـزان للصعـود بدمعـة وابتسـامة.. تتسـع الفتحـة عـن آخرها فجـأة.. يسـقطان نحـو الفـراغ الهائـل.. يقهقـه الصـوت بشـدة.. ثمر.. يسـقط الأسانسـير.

المُهزأ

جسمه مقيد بالسلاسل، مثبتة في وتد صلب، يركع مستسلماً لمصيره، يرقب فريقين يجلسان على القهوة في مواجهة بعضهما، يلوح الرجل ذو الشعر الأصفر بسبابته مهدداً للعدو، فيقوم الرجل ذو الشعر الأحمر ثائراً، ويصفع أحد صبية الرجل ذو الشعر الأصفر على قفاه، ثم ينظر ناحيته ساخراً، فيذهب الصبي المصفوع ناحية الرجل المقيد، يمسك سكيناً حامياً، يقول:

اقطع أذنك اليمنى ولا أفك قيدك وتكون معنا؟

سأبقي مكاني، فأنا أخاف الموت.

يقطع الصبي أذنه اليمنى، يكتم الرجل صرخاته، ألم صاعق يسيطر عليه... يغمض عينيه، يتذكر لبرهة.. رأس مرفوعة، جسم فتي، روح شجاعة على ظهر حصان جامح.. يقهقه

الصـبي ويعـود مكانـه، فيقـوم الرجـل ذو الشـعر الأصفـر، مغتـاظ، يصفـع صبي يتبع ذو الشعر الأحمر، ويشير بوسـطاه غاضبـاً، فـيروح الصـبي للرجـل المقيـد:

اقطع أذنك اليسرى ولا أفك قيدك وتكون معنا؟

خذوا كل شيء، ولا تصفعوني على قفاي!

يسـقط الصـبي عـلى الأرض ضاحـكاً، يقـوم بعدهـا ويقطـع أذنـه بمطـواة، ويعـود ضاربـا كفـاً بكـف، ويجلس مكانـه.. فيقـوم ذو الشـعر الأحمـر ويصفـع كل صبيـة عـدوه ويعـود لكرسـيه، يضع سـاقاً عـلى أخـرى.. فيطبطـب عليهـم ذو الشـعر الأصفـر، ثـم يـرد الصـاع صاعـين، ويجلـس عـلى كرسـيه.. فيصفقـان فجـأة فتحـدث عركـة بـين الصبيـة.. صفعـات، لكمـات، ركلات، وغبـار يـسري عـلى الملابـس الممزقـة.. تلـوح امـرأة مهجنـة، ليـس لهـا ملامـح محـددة، يتوقفـون.. ثـم يعـودون مكانهـم.. عـلى الأرض.

ينظـر لهـا الرجـلان بشـبق، ترتمـي في أحضـان ذي الشـعر الأحمـر، تهمـس في أذنـه، فيهـز رأسـه.. تجـري لتفقـأ عيـني الرجـل المقيـد.. تبتعـد، ترتجـف، فيجذبهـا ذو الشـعر الأصفـر، تقعـد عـلى حجـره.. فيداعـب بيـده عمودهـا الفقـري.. تعضـه مـن أذنـه، وتقـول بغنـج:

أريد صفعه على قفاه.

ابتسم وهو يقبلها من رقبتها الجميلة، وشوشها فلمعت عيناها، وركضت كطفلة تمارس لعبتها المفضلة، قطعت لسان الرجل المقيد.. وعادت لتقف في المنتصف، مدت يدها للاثنين، قاما.. فقادتهما للرجل من جديد، منحت كل واحد منهما سكيناً وأشارت ليدي الرجل، قطعوهما.. نحيب صامت، ودماء تنزف من جسد الرجل المقيد، يمسكان يديها من جديد، ويدورون حول الرجل برقصة دائرية.. وضحكاتهم الصاخبة يسمعها بإحساسه المعذب.

* * *

يسير الرجل في الشارع، فكوا قيده منذ أيام، اختارت فيهم المرأة المهجنة الرجل ذو الشعر الأصفر «أفضل الحِجر عن الحضن».. طأطأ ذو الشعر الأحمر رأسه، وأحس بالخزي.

* * *

يخشى الرجل التعثر، ترتطم قدماه بحجر كاد يسقطه، لولا يد ذو الشعر الأحمر التي سندته في اللحظة الأخيرة، تضحك المرأة المهجنة، ويواصل الرجل المسير بمساعدة ذو الشعر الأحمر، تقترب منهما المرأة رفقة ذكرها.. تصفع الرجل على قفاه، يبكي فؤاده المستباح، فيهم ذو الشعر الأحمر بصفعها، فيمسك ذو الشعر الأصفر بيده.. تتلاقى الأعين الحانقة.. يتناطحان، ويبدأ شجار بينهما.. فيمضي الرجل وخلفه المرأة المهجنة.. تصفعه على قفاه مع كل خطوة.

تنظـر خلفهـا، عـراك بـين الذكريـن لـن ينتهـي!.. تلتفـت مـن جديـد وتواصـل طريقهـا، تصفـع الرجـل، فيحـني رأسـه، ثـم تتركـه فجـأة... فيسـقط متعـثراً عـلى الأرض.

تقهقـه حـين تـرى الرجـل يزحـف ناحيتهـا، يتشـمم رائحتهـا.. تعـض عـلى شـفتها السـفلى وتـضرب الأرض بنعلهـا.. وتسـير بخطـوات بطيئـة، يتبعهـا الرجـل كظلهـا.. حـتى ظهـر صبيـة المعسـكرين.. نظـروا للرجـل ذاهلـين، ثـم بعـد لحظـات.. يضحكـون ويشـيرون بأيديهـم في لحظـة واحـدة:

انظروا للمهزأ.. مدهش!.

ثم سقطوا على الأرض فجأة.. من كثرة الضحك!.

التيه

أسير حافياً على الرمال الحارقة، الشمس حامية.. يشغلني التفكير عما أقبل عليه عن هذا الألم الذي يغزو مسامي، أرتدي خرقة بالية من الصوف تزيد جسمي غلياناً كلما جددت في المسير، الألم يطهر من الخطيئة، والسعي بدون معاناة لا يركن إليه ..

تطهر يا بني، فالخطيئة تدنس الروح.

الآن أسلك سبيل طهارتي، تهفو روحي للتخلص من الشوائب التي علقت بها، إن أردت الزهد في الملذات انغمس فيها!، أخبرني رفيقي بهذه الجملة، شيطان نطق فاتبعته صامتاً لحانات الخمر..كئوس!، قادني للبغايا، مضاجعات..!

لقد كشف الرب للراهب حجب الغيب وسيخبرك بما هو آت.

لاحت لي من بعيد الصومعة التي يستقر فيها الراهب، أشرق الأمل في نفسي فبدد القلق، مشيت مهرولاً برغم التعب الذي يهد جسمي حتى أدركت مرادي، أشرع في رفع يدي لدق الباب، فيُفتح فجأة، ويلوح منه كنجمة في الآفاق، شيخ يتكأ على عصاه، ذو وجه طويل بلحية بيضاء، وقار مغلف بمهابة، نظراته الثاقبة تطلع على داخلي.. آخذ نفسي.

لقد طال الانتظار، لكنك في النهاية أتيت يا هليل!.

هبطت دمعتان، فجثوت على ركبتي خاشعاً، وأخذت يده اليمنى فلثمتها بينما تجولت اليمنى على خصلات شعري، حنون كأبي الراحل.. شدني برفق، انتصبت كسيف، فقادني لصومعته، أجلسني على الدثار، وذهب مستنداً على عصاه، اختفى لدقائق ثم أتى ببضع تمرات وكوب من اللبن ووضعه أمامي، لاحت من شفتيه ابتسامة حانية.

قال وهو يربت على كتفي بينما يهم بالجلوس:

جئتني وأنت على حافة الهاوية وأخشى ألا تستطيع يدي إنقاذك!.

سهمت للحظات، غصة بحلقي ومرارة بروحي:

كيف تكون نهاية رحلتي؟

في قعر الجحيم!.

انتفضت .. جحيم في رأسي.. التوبة، الخلاص.. أنظر له متوسلاً، وأتضرع بأناملي على يديه الواهنة، يقول: علم الرب لا شك فيه!

يسود وجهي، أصمت، أحاول التفكير بهدوء، فيضع أنامله على رأسي، يبتسم، ويضع فجأة يده على قلبي.. تتسع عيناي، يقول:

صنه، يصفو لك كل شيء

وأنجو؟

لا ضمانات.

قمت مغادراً فلاحقني صوته كسيخ في أذني:

ستهيم على وجهك وستعود بعد فوات الأوان!.

أغلق الباب..الشمس تشتعل فوق رأسي، أملي مستباح بين المشيئة والعلم، مقاومتي تتلاشى، تائه بينهما..إرادتي تتداعى، واليأس على صدري يرين.. الرمال تحرق جلدي، والوهن يفت عضدي.. طريق عودتي طويل.. أحاول اقتناص الهواء من الجو القائظ، سأجد سريراً وكأس.. ألهث، واشعر باختناق، أسقط كأنني أرى نهايتي، تلوح من بعيد بزيها الأسود.

* * *

أفتح عيني، أغلقها سريعاً، ثم أعاود فتحها خلف أصابعي، على مقربة مني أقدام امرأة، يمينها جنة، ويسارها نار، اتعلق بسبيل النجاة، وارفع بصري متمهلاً، متشحة بالسواد، الموت زارني بأسرع مما كنت أتصور، الراهب لا يكذب، وأنا المتمرد الأول، تتساقط هواجسي أسفل حذائها، حين أرى وجهاً مشرقاً، ذهبي كرمال الصحراء، مدموغ بطابع الحسن، ومتوج بشامة على الجبين الأيسر، وعلى الأيمن غمازة بهية، أشعر أنني ما زلت حياً، أو ميتاً، لا يهم، فهذا الوجه لا يمكن بأي حال، أن يكون من قاطني الجحيم.

استيقظت هذه المرة بداخل خيمة فسيحة، أبصرها على مقربة مني، جلبابها مفتوح من الركبة حتى قاع النعيم، جلدها يضوي كنجوم الليل في قلب الصحراء، تكنس بسعف النخيل، تدب في العافية، حين يجثو البصر على خصرها، يتمنى الصلاة عليه لساعات، ونيل التوبة جزاء الجحود به، تلتفت لي بحركة مباغتة فترمش عيني، أغمضهما، فتضع مركوبها على كتفي، يضربني برق ويهزني رعد فأفتح عيني خائفاً، تنظر لي بعينيها الواسعتين، سوداوين كتربة الوادي، انغرس فيهما كحبة قمح تبحث عن الحياة، تخبرني « أنا أحب العين البجحة، تندب فيها رصاصة ولا ترمش!».

تتركني غارقاً في حيرتي، وتخرج.

تعود بعد قليل، تحمل طبقاً من الفخار، يتماوج فيه لبن الماعز، وبيدها الأخرى أرغفة من الخبز، تضع الطعام

أمامـي:

تقوت!

من أنتِ؟

مانحة الحياة!

كيف؟!

بعثت على يدي، دوني لم تكن لترى النور!.

دعيني أتحسسك!.

تقـوم مـن أمامي فجـأة، عاصفـة تهـب عـلى ملامحهـا، تنظـر لي شـذرة، وتلقـي في وجهـي غبـار الغضـب، وتمـضي كالناقـة، وأنـا معلـق بـين الحيـاة والمـوت.

تعـود مـع شروق الشـمس بالفطـور، كان نومـي كالـسراب، يضيع مـني كلمـا اقتربـت مـن الإمسـاك بـه، تبـدو منقـذتي اليـوم كسـحابة رائقـة، تضـع أمامـي الفطـور، تقـول بلهجـة آمـرة:

افطر!.

سأفطر بكِ.

اجذبهـا لصـدري، اتأكـد الآن مـن آدميتهـا، فأمددهـا بجـواري... حانـت لحظـة هبـوب العاصفـة عـلى الصحـراء!.

تتعلـق بي مـع الأيـام، ازهدهـا تحـت وطـأة الثقـل، روحـي سجينة، أبحـث عـن وسـيلة للإفـراج عنهـا، تقـترب مـني فابتعـد، تغويـني فاشـمئز، تـراودني فاتقيـأ، تشـير لصدرهـا، وتخـبرني باحتقـار «هنـا خلاصـك!»... أفكـر، ثـم ارمـي بنفـسي للفـردوس المفقـود منـذ ميـلادي، وامنـح لجسـمي تجربـة أخـيرة، فقـدت فيهـا الأمـل، فقـررت الرحيـل:

وداعاً

لا تكـن أحمقـاً... حضـني أرضـك وجسـمي جنتـك، ومعـي خلاصــك!

الجنة لا زهد فيها!

اخرج من الخيمة، يأتي صوتها:

أنا الشجرة التي تبحث عنها!.

امضي، فالغبي فقط، من يصدق الدجال لمرة ثانية!.

* * *

أصـل لشـجرة شـائخة، تـضرب بأفرعهـا نحـو العلـو، تفـيء الظـل حولهـا، اسـتندت عـلى جذعهـا وقـد أضنـاني الإرهـاق، أغمضـت عيـني وذهبـت في إغفـاءة، اسـتيقظت منهـا عـلى صوت مجـذوب يطلـق لحيتـه بشـكل مخيـف:

يا غريب، السائح في الدنيا مستقر، والمستقر فيها تائه !

اتسعت عيني عن آخرها، ودهشت من قوله الذي شحذ الفضول في جوانحي من جديد، هرعت نحوه وأمسكت بمرفقه بشدة:

ماذا تعني ؟

يا غريب، إن ذهب منك ما يميز، سقط عنك ما يدون!.

لا أفهم.

يا غريب، السبيل هو ....

يهز رأسه يمنة ويسرة، ثم يدور حول نفسه، كأنه يأخذ الكون بين أحضانه.

أذهل، استوقفه فيدفعني على غير توقع مني ويركض نحو الصحراء، تدبرت عبارته في ثوانٍ معدودة، تتسع عيناي من الذهول، قفز لذهني المعنى المراد، فركضت جهة الصحراء ورددت بشكل متواصل كأنني أهذي كمحموم:

السبيل هو ....، السبيل هو....

كنت أهز رأسي يمنة ويسرة وأنا ألاحق المجذوب باحثاً عن الخلاص!.

الأحمر يبعث على الفتنة

تقف شامخة مع ميلاد الصباح، يستقبل جسدها العاري دفقات شمس النهار وهي تتمايل على أديمها العاجي، تقترب من البئر وتنحني لاغتراف الماء، تنثره على نحرها المرمري فيتمايل ثملاً على نهديها المقدسين، ويهبط خاشعاً على باقي جسمها فيبدو كلؤلؤ يبرق بالسحر، تبلل شفتيها الممتلئتين وترشف قليلاً من الماء لتبلل ريقها، تنهض فيسبح الكون، وتسير على الرمال اللاثمة لقدميها العاريتين.. شيء ناعم يمس روحها ويستقر في صدرها.. تتنفس بعمق!.

* * *

تُقاد فتاة هيفاء إلى داخل المعبد، ترتدي ثوباً يغطي جسمها الفتي، شعرها يهبط على ظهرها كشلال من ليل بهيم، ينظر لها الكاهن بشبق، صلعته تلمع تحت لهيب

النـار المنبعـث بوهـن مـن أنحـاء المعبـد.

الهـواء يلامـس شـعرها، يـلاقي حتفـه عنـد جيدهـا.. لحظـات ويخلـع عنهـا الكاهـن الثـوب، يملـس بأناملـه عـلى شـعرها فيحجـب الهـواء.. يجـوس خـلال ديارهـا.. تلتقـط أنفاسـها بصعوبـة بالغـة!.

* * *

تجلـس عـلى عـرش مُطعـم بالذهـب، عـلى رأسـها تـاج مـن المـاس، يومـض كالـبرق، يهـف عليهـا اثنـان مـن العبيـد برياشـهم فتشـعر بالانتعـاش.

يدخـل عليهـا بضعـة رجـال يجثـون أمامهـا، يقـترب كبيرهـم منهـا، يسـجد ويقبـل صندلهـا، ثـم ينظـر لهـا بتبتـل، ويقـول:

مولاتي!.

* * *

يدخـل عليهـا الملـك بالصولجـان في يـده، تـاج مـن الأحمـر والأبيـض عـلى رأسـه، بشرتـه حنطيـة، وعـوده صلـب كحربـة، ذو عضـلات متينـة كأنهـا قـدت مـن الصخـر، تبـصره الملكـة فتهـرول نحـوه، تركـع، فينحـسر مـدى نظرهـا عنـد ركبتـه العاريـة، تقـول بتهـدج:

مولاي!.

يضع يده على شعرها الأملس ويقول بشموخ الآلهة:

أنتِ لي!.

* * *

يجرونهـا في الشـارع كعـنزة تقـاد للذبـح، يمزقـون ملابسـها، يغـرزون أظافرهـم في كتـل اللحـم البيضـاء، تلمـع في رأسـها الذكريـات، طـلاب يتوافـدون مـن كل صـوب وحـدب لنيـل العلـم منهـا، الآن تُنتهـك حرمتهـا عـلى مـرأى ومسـمع مـن الجميـع، يـنز الـدم مـن بدنهـا، تشـعر بألـم حـارق يـسري في مسـامها، فتـقٌ في جـدار الـروح.

تُجـذب مـن شـعرها بقسـوة، صفعـات تنهـال عـلى وجههـا، وركلات تتتابـع عـلى جسـمها، المقاومـة تتـلاشى، والحيـاة تتسرب ببـطء، الصـدر يضيـق والهـواء يشـح، تسـمع:

مُهرطقة!.

لحظـات.. الرئتـان تتوقفـان عـن العمـل.. والفـؤاد يذهـب في نـوم عميـق.

* * *

تدخـل الحمـام وتخلـع ملابسـها، تتفحـص جسـمها، تشـعر بالرثـاء الداخـلي لـمَ آل إليـه، وهـنٌ بعـد فتـوةٍ وذبـولٌ بعـد نضـارةٍ، الجسـد مدنـس، السـقوط نحـو الحضيـض، الفـخ

المنصوب للإنسان، الخلاص يكمن في إهماله، لكنها تشعر بأمر ما غير منطقي، تقول في نفسها « يبدو أن الرب الجديد مخنثاً أو أبطراً!»، ترتدي ملابسها، وتخرج من البيت في ثوب أسود فضفاض وحجاب كليل يتوسطه قمر، وعلى الرغم من شدة الاختناق.. تشعر البتول بالاختناق!.

* * *

تلهث المرأة من فرط التعب، أقدامها تقرحت من طول المسير، تتبع فارس يمتطي صهوة جواده ويسحبها خلفه مقيدة اليدين، يرتدي جلباباً وعمامة، ذو لحية مطلقة السراح، تبدو على ملامحه البداوة وتتجلى من نظراته الفظاظة.

شعرها مهوش وثيابها متهرئة، بريق الفتنة خفت من عينيها، اُنتزع منها على مدار سنين طويلة، يتوقف الفارس أمام خيمة، (اعتادت حياة البيوت) يهبط من على حصانه، ويفك الحبل من معصميها «أنتِ ملك يميني!».

يحملها، لا تقاوم، اعتادت على الهوان، يدخل بها الخيمة، فتشعر بالغثيان، ويعز الهواء على المنال!.

* * *

تلبس فستاناً قصيراً يبرز مفاتنها التي تسر الروح، تعتمر قبعة زادتها إشراقا، وتلبس قفازين صبغا عليها آي الحداثة

مـع حـذاءٍ بكعـب عـالٍ أضفـى عليهـا إغـراءً لا يقـاوم، تبـصر علـى مرمـى البـصر رجـلاً بجلبـاب أبيـض يصـل لأسـفل ركبتـه، وشـالاً زبـدي اللـون يغطـي بـه شـعره، ذو لحيـة طويلـة غـير مهذبـة، جثتـه ضخمـة وملامحـه قاسـية.

يقـترب.. تشـمئز مـن هيأتـه.. يرميهـا بنظـرات يـبرق فيهـا الوعيـد المشـوب بالنفـور، يقـول حيـث يـضرب كفـاً بكـفٍ:

عـورة... فتنـة.. دنسـة.. نجسـة.. غوايـة.. شـيطانة.. ملعونـة.. وقـود النـار!.

يسـتحيل اشـمئزازها ذهـولاً، نظراتـه الوقحـة أصابتهـا برعـدة عاتيـة، تحـاول شـد الثـوب للأسـفل.. وتجهـش في البـكاء.

* * *

تمـشي بجـواره، العـرس خـالي مـن كل مناحـي الـسرور، ترتـدي عبـاءة سـوداء واسـعة تغطـي جسـمها، ونقابـاً أسـود عوضـاً عـن الأحمـر (الأحمـر يبعـث عـلى الفتنـة).

يسـير بجوارهـا باللحيـة الطويلـة والجلبـاب القصـير، مـا زالـت الملامـح قاسـية، ترفـع النقـاب مـن أسـفل قليـلاً.. الجـو قائـظ، تأخـذ نفسـاً طويـلاً، تشـعر ببصيـص الحيـاة يومـض في داخلهـا.. مـن جديـد!.

* * *

تسبح في النهر بانسيابية، الماء يغمر جسدها، بعث بعد موت.. السماء تظللها والشمس تضفر من خصلاتها عناقيد الذهب لترسل أشواقها على الجسم المشع فيزداد توهجاً.. تخرج من الماء، تتمدد عارية على حقل برسيم، يسجد النور بين فخذيها، وتهفهف العصافير حولها كالمريدين حول قطبهم.

تبتسم، يتدفق الهواء إلى صدرها في شوق، تغمض عينيها.. وتأخذها سنة من النوم المريح..

صراصير

حشد من الصراصير يسيرون بانتظام على الجدار الإسمنتي لبالوعة مجاري، الغطاء يحجب الضوء من التسلل للداخل، هنا الأمان المطلق، بعيداً عن العالم المتسع، نمضي لا نعرف لنا وجهة، لكن الظلام يحمينا، الستر!.. الصرصار الأول انكشف عنه الغطاء فسقط لهاوية الشقاء، حينها لم يكن السواد مخلوقاً!.

مشردون في بقاع الأرض، نبحث عن علامة ما للصعود من جديد، نحاول التخفي قدر المستطاع واختلاس فتات لمعدة خاوية، أو نيل وطر من أجل بقاء لا قيمة له، لكن كثرة العلامات أضلتنا عن الهداية.. ما زال المعراج معطلاً.

يستوقفنا صرصار ضخم، هذه علامة على العمر الطويل، يتحرك بيننا بخطوات بطيئة تحمل الثقل «هذا مكانكم، الخارج خطر!» .. لكن الخارج هو الارتقاء، الهواء، المعراج،

الرحلة المقدسة.. يواصل» الظلام هو المقدس!».

رائحة نتنة تصيب الكثير منا بالدوار، فضلات بشرية تنبثق من سلاح ما، تصيبنا بالدوار، نتدافع، نترنح، أشعر بالغثيان، البعض يسقط، الصدر يضيق، أنفاس أخيرة تُلتقط بصعوبة، وأرواح تحتضر... يظهر من بعيد صرصور كبير يقود مئات من الصراصير السود ذوي الشوارب اللعينة، يحملون زجاجات بحجم عقلة الإصبع، يطلقون منها الرائحة.. خيوط حريرية رفيعة يمنعون بها الغاز من التسلل لخياشيمهم (تواطؤ مع البشر).. يقول قائدهم مقهقهاً «الاتساع بلا قيود والضيق محاط بالقيود.. الضريبة هي الأمان!».

هجموا علينا بشواربهم اللعينة وإبرهم القاتلة.. كنا عُزل بلا شوارب.. فوضى عارمة فاضت بداخل البالوعة، الإبر تخترق الجلد السميك، مادة بيضاء لزجة تسيل من البطون، وأجساد تتلوى من فرط الألم.. لا نملك في هذه اللحظة ترف المواجهة، الشجاعة خرساء.. الموت أو الهروب!.

«الموتى خونة، السائل الأبيض دليل على قذارتهم!»

مرت سنون على الحادثة، ذكرى منسية، لماذا لا يوجد لنا قبور؟.. هرطقة فارغة!، صرنا نعيش على الأنقاض، في البالوعات الصغيرة الضيقة والمواسير النائية، الاعتياد على شيء يفقده وحشته ووحشيته في آن واحد، في انتظار العلامة، تلك التي تقودنا للنور، بعيداً عن أحذية الآدميين

وهولوكستهم، اللذة التي تلمع من عيونهم حين احتراقنا، والفرحة التي تكتنف وجوههم حين تتصاعد إلى أنوفهم رائحة الشواء!.

ذات صباح.. مغالطة منطقية اقتبستها من حياة البشر، فحياة البالوعات لا تعرف إلا الليل السرمدي، الزمن يفقد ماهيته في بحر الاعتياد، يكون كالأبله الذي مات من زمن طويل ولم يعد له سيطرة على حياة البالوعات، استيقظت على خبر شاع بين الصراصير.. صرصور يصدر عريراً وهو لا يزال في مهده، أصرخ .. العلامة!.

أمضي في المواسير، رائحة عطنة تداهم خياشيمي، اقصد بقعة نائية، تزداد الرائحة عطناً، أشعر باقتراب الوصول، المعجزة لا تنبع من حديقة غناء، تفقد جدواها حينها، أصل للمكان، أرى بضع رجال مجتمعين حول صغير في مهده، العرير ينبثق من حنجرته، أقول في نفسي ذاهلا «البشارة!».

انفض الجمع عنه، اقترب بخطوات مرتعدة، أتجمد للحظات، نقطة نور تصدر منه، ذهول تام يشملني، براز الآدميين رائحته نفاذة بشكل يبعث على القيء، انشغل عنه بالاستغراق فيما أبصره «النور هو الخطيئة!» ، يبتسم ساخراً في مهد، أقطب، أحسست أنه ينظر لي بشفقة، يقول «هربت من ذاتك حينها لتبحث عنها في مكان آخر، أبله!»

كلماته هبطت على جلدي كلسع النار، جسدي يرتجف وعرقي يسيل، أحس بالصداع «ماذا تقصد؟!»، نقطة النور تتسع، نذير شؤم ينعق في صدري، الخطر يقترب، يقول «كانت قيامتك ستبعث من لحد موتك، هروبك موت متصل، وبعثك سيكون على يدي!».. هزتني كلماته وتلاعبت بي، لكن خيبة الأمل ما زال مذاقها المر في حلقومي، تركته ساهماً وأنا أردد «النور هو الخطيئة، الظلام هو المقدس».

تأكد نذير شؤمي وصدق حدسي، أتت الأيام التالية بالمصائب، الصراصير السود بشواربهم اللعينة طاردوا الصرصور الصغير، تحمله أمه على جناحيها، النور ملعون، متواطئ مع الصراصير ذات الشوارب، يقودهم إليه كلما اختبأ في مكان ما، يدركوهما في ماسورة نائية، تخبئه أمه في جب مخفي، خطواتهم الثقيلة تقترب، قلبها يتأرجح صعوداً وهبوطاً، تواجههم، يهجمون عليها، يحاولون إرغامها على الاعتراف بمكان البشارة، ترفض، يعتدون عليها، جلدها البني ينز بالألم، تصرخ.. ينبثق منها السائل الأبيض اللزج.. ينطفئ النور!.

بعد سنين من اليأس، ظهر الصرصور المخلص، ظننت أنه أكذوبة وانتهت، مات ومت معه، أن العلامات وهم، لكن ظهوره بدد كل شيء، يحمل معه حبة أرز وقطرة خمر، يقول وهو يطوف البلاعات «هذا قرباني لكم!»، نوره كبر واتسع، جذب الكثير من الصراصير البنية، لكن المصير

القديـم يطاردهـم كلعنـة أبديـة، يسـتحثهم عـلى الانضمـام، يتزحـزح الفـؤاد والجسـد مصلـوب في مكانـه، أصـوات خطـوات ثقيلـة تقـترب، الصراصـير السـود بشـواربهم اللعينـة يظهـرون، رائحتهـم تنـذر بالوعيـد، يحيطـون بالمخلـص، يبتسـم لهـم، الصراصـير البنيـة تحـني الـرءوس، نـوره يكشـف تخاذلهـم، لا يريـدون كوابيـس في نومهـم، ملاذهـم الممتـع في الأيـام الخـراء، يمسكون بـه، لا يقاومهـم، يخرجـون إبرهـم، يرشـقونها في جسـمه، يبتسـم، الدمـاء تتسـاقط مـن جلـده، تسـقط حبـة الأرز، وتختلـط قطـرة الخمـر بدمائـه المنسـكبة.. يشـم الصراصـير البنيـة رائحـة الدمـاء المختلطـة بالخمـر، أصرخ ذاهـلاً «البشـارة!».

تـسري حمـى الشـجاعة وننقـض عـلى الصراصـير السـود، في البـدء سـقطت بعـض أجسـاد الصراصـير البنيـة، نـزداد حماسـة ويشـتعل اللهيـب، نجـذب شـواربهم ونسـحلهم في البالوعـة ونتتبعهـم في المواسـير، نفتـك بـكل الصراصـير السـود، مسـيرة طويلـة وحشـد هائـل مـن الصراصـير البنيـة، نُجـد السـير نحـو غطـاء الغرفـة العظمـى، النـور، والخفـة الملازمـة للاتسـاع، نزيـح الغطـاء الأسـمنتي بعـد مشـقة طويلـة، ونخـرج أفواجـاً دون وعـي، الشـمس ترمـي بحممهـا فـوق رءوسـنا، يسـقط الكثـير، يتقلبـون كأنهـم صرعـى، حـذاء غـير واعٍ يـدوس عـلى عـشرات منـا فيقعـون فريسـة للمـوت، رعـب كامـل يسـتولى عـلى حواسـنا، نتبـادل النظـرات الفزعـة، النـور يكشـف كل شيء، عـراة تحـت الشـمس، لا سـبيل للزيـف، نبحـث عـن معراجنـا،

البشـارة أتـت، وحـين رؤيـة النـور يكـون المعـراج أمـام عيننـا عنـد الخـروج مـن الغرفـة الكـبرى، نمشـط المـكان، الشـمس تحصـد أرواحنـا، لا وجـود للمعـراج، النـور خطـر، وعوراتنـا مكشـوفة لبعضنـا، اللعنـة!.

نعـود لمـكان خروجنـا، القبـور ليسـت لنـا!، والاتسـاع يسـاوي المـوت!، نزيـح الغطـاء بعـد مشـقة ونهبـط هرولـة، لهيـب الشـمس مـا زال يطاردنـا بسـخونته القاتلـة، نـردد بعـزم «الظـلام هـو المقـدس، والنـور هـو المدنـس!»

نغلق الغطاء.. ويختفي النور!.

على واحدة ونص

وقف سعد على المسرح، يلبس قميص أحمر على بنطلون أصفر، يمسك الميكروفون بيده اليمنى، ينفخ فيه بكل عزمه، تنتفخ عروقه، يتقيح على الناس بصوته، يتراقص البعض في نشوة، البعض الآخر ينظر بقرف، تصفيق وصافرات استهجان، يبدأ المتفرجون في مشاحنات.. «صوته بشع»، «محظوظ»، «مجدد في الغناء»، «يعمل حالة».

يستمر سعد في الغناء، ثلاثة من أفراد الفرقة يتمايلون كالسكارى، الناس بالأسفل يتناطحون، تمتد الأيادي في اللحم، صرخات، واستغاثات، يرتفع صوت سعد أكثر، موسيقى الدي جي تغطي على كل شيء، يضرب رجل عجوز كفاً بكف:

خمسون سنة مرت ولم أدخل حفلة، والآن.. يا خسارة ثمن التذكرة!

ينتهي سعد من الغناء، يغادر المسرح، فيتوقف الجميع عن الخناق، يخرجون.. تقول امرأة بدينة:

والله عجائب.. يعطي الحلق لمن لا أذن له!

* * *

في اليوم الثاني، توافد الناس على الصالة، دخل سراج من خلف الستار، حالة ترقب سيطرت على الجمهور، بدت خيبة الأمل على وجوه البعض، خرج صوت سراج من حنجرته انسيابياً، شجياً، فيه بحة ساحرة خدرت الناس، شعور بهيج سيطر على قلوبهم.. أغمضت العيون، سرحوا في الملكوت، بدوا كطيور محلقة، خفة!.. وسراج يعلو ويهبط بصوته في نعومة ورشاقة ترقفان الأرواح.. توقف فجأة، أحس الجميع بالذهول، قال أحدهم:

مثالي!

وأردف آخر:

ليس به عيب.

عقب شخص أصلع:

وهذه هي المشكلة!

اختفى سراج.. وغادر المشاهدون وفي جيوبهم السعادة.

* * *

استمرت الحفلات على حالها، الأيام الفردية من نصيب سعد، والزوجية حق سراج.. العدد صار يتناقص من عند سراج ويصب في مصلحة سعد، جن جنون سراج، أحس بالحيرة، القلق، بدأ يشك في نفسه، في صوته، حاول أن يطور غناءه يوماً بعد يوم، استغرابه يزيد، حتى وقف على المسرح، لم يجد إلا شخصاً واحداً، الرجل العجوز، سأله سعد بخوف:

صوتي وحش؟

بالعكس!

غضب سراج، صرخ، لعن الدنيا، والحظ، قال للعجوز:

أين المشكلة؟

نظر له الرجل العجوز طويلاً، ثم قال:

المشكلة أنه لا مشكلة فيك!

غادر الرجل العجوز الصالة.. وثاني يوم، لم يجد سراج إلا الكراسي، اسود وجهه، أحس بالصداع، الرؤية تغيم، وقف أمام صاحب الصالة، مسك بيده قبل أن يسقط، استند عليه سراج، بدأ يصلب طوله من جديد، قال له صاحب الصالة:

كفاية يا سراج.. بيتي يخرب!

يعني لست موهوباً مثلما قلت لي؟!

رد عليه صاحب الصالة:

موهوب جداً.. صوتك معجزة، وهذه هي الكارثة!

ذهب سراج إلى الطبيب، بدا عليه الإعياء، خطواته ثقيلة، نحل جسده من كثرة التفكير، الأرق.. شعر باحتراقه، علامات سوداء انتشرت على جلده، صدم الطبيب عندما رآه، تحسس جلده، لسعت يد الطبيب، فوضع أصابعه في فمه، لحسهم ليمتص قليلاً من الحرارة، قال له سراج:

أريد غسيل مخ!

ليس اختصاصي.

صدم سراج، صداع دق في رأسه، واصل الطبيب:

أنا جراح.. أقص فقط!

خرج سراج من عند الطبيب متخبطاً، يرى الناس كالحمير، أذنه تلتقط صوت النهيق، يضع يديه على أذنيه، يحاول منع الصوت، فيخرج من داخله.. يغضب سراج، يحشر إصبعيه في أذنيه، يحس بألم شديد، يصرخ في الشارع، يكتم نفسه، ينظر له الناس في عجب، يجري سراج من أمامهم، شعور بالمطاردة.. يواصل الركض، حتى تنقطع أنفاسه،

يصـل البيـت، يغلـق البـاب عـلى نفسـه ويرتمـي عـلى الأرض باكيـاً.

* * *

فـاق سراج مـن غيبوبتـه، استسـلم للنـوم، ضـاع الزمـن، كـبرت لحيتـه، نظـر في المـرآة، رأى وجهـه، كان وجـه حمـار.. ولأول مـرة منـذ زمـن.. يبتسـم سراج!

* * *

قطـع سراج تذكـرة، دخـل حفـل سـعد الـذي صـار يوميـاً، المكان مزدحـم عـن آخـره، يجـد بصعوبـة مسـاحة ضئيلـة لوضـع قدمـه.. اسـتقر، لكنـه يلتقـط أنفاسـه بصعوبـة، يعلـو صـوت سـعد، محشرجـاً وغليظـاً، ارتفـاع الموسـيقى أصـاب رأس سراج بالتضخـم، رأى كل واحـد بعـدة رءوس، ضحـك مـن منظرهـم، كركـر، وبـدأت المشـادات.. «صوتـه بشـع»، «محظـوظ»، «مجـدد في الغنـاء»، «يعمـل حالـة».

العيـون ليسـت غريبـة عـلى سراج، أحـس أنـه رآهـم مـن قبـل، بـدأ يتوحـد مـع المكـان/ الجمهـور، صوبـت لـه لكمـة مـن شـاب غاضـب، سـقط عـلى الأرض، رآه يخـرج شـهادة تخـرج، يبـول عليهـا أمـام الحضـور، ضحـكات هسـتيرية.. يصخـب صـوت سـعد، يعمـل دوشـة غريبـة، تترنـح الـرءوس، يتسـلل سراج مـن بينهـم حـتى يصـل المـسرح، يتبـادل المتفرجـون السـباب/

اللكمـات.. يقـف سراج عـلى خشـبة المـسرح، تتوقـف الفرقـة للحظـات، يصمـت صـوت سـعد عندمـا يـرى سراج.. ينظـر الجمهـور بغضـب لـسراج، نظـرات تهديـد ووعيـد، يصفـق سراج مترنحـاً، مشـجعاً سـعد عـلى الاسـتمرار، تـدق الطبلـة، وتزعـق الآلات، ويعلـو صـوت سـعد مـرة أخـرى، أكـثر قـوة وغلاظـة.. يعـاود النـاس الخنـاق/ السـباب.. دمـاء تتسـاقط مـن الوجـوه والـرءوس، شـد سراج الكرافتـة فجـأة مـن رقبـة سـعد، نظـر لـه بغيـظ، يفكـر في الهجـوم عـلى سراج، لكنـه يتوقـف عندمـا رآه يلـف الكرافتـة حـول وسـطه، يـصرخ سراج في انتشـاء:

رقصني على واحدة ونص!

يتقيـأ سـعد مـن الميكروفـون، تتضخـم الـرءوس أكـثر في عيـون سراج، ويدخـل في وصلـة رقـص مشـيراً إلى سـعد:

أنت مغني فاجر.

يضحك سراج، ويستمر في الرقص.

أبي

أسير في أحد الشوارع الجانبية، السماء كحل، ورائحة العطن تفوح من البيوت المهجورة، ظهر لي رجل من العدم، ارتطمت به فارتعشت خوفاً، ملامحه مشوهة تحت ستر الظلام، على وشك التبول، ظننته قاطع طريق، أو شمام، يريد الحصول مني على المال والسلام، حبست أنفاسي حتى فح في أذني قائلاً:

أبوك في المسجد، رأيته يصلي العشاء

تجمدت مكاني للحظات، طأطأت رأسي متفكراً، رفعتها لاستفسر عن اسم المسجد، اختفى شبحه، احتضنت الظلام لعلني اصطدم به، لم أمسك إلا الفراغ، نباح كلب ارتفع فجأة بجانبي، ارتفع جسدي لسنتيمترات من الفزع، لعنت الكلب، حماقتي التي جعلتني أسير في هذا الطريق الموحش، صدح أذان الفجر فجأة، اعتبرتها إشارة، تتبعت

مصدر الصوت حتى وصلت إليه، مشطت المكان بنظري، لم أعثر على أبي، أقام المؤذن الصلاة، لا بد أن يظهر، تعجب الناس حين وقفت في آخر المسجد وحيداً، الصفوف الأولى لم تكتمل، أردت اصطياد أبي حين دخوله، الإمساك به، نوى الإمام للصلاة، حاولت الاستغراق فيها عبثاً، حتى أتت لحظة التسليم، التفت بعدها لأبحث عن أبي، زفرت يائساً، ذهبت للإمام، سألته عنه، استفسر مني عن ملامحه، أجبته:

هو بلا ملامح.

نظر لي متعجباً، أحس للحظة أنني مختل عقلياً، جاراني في الحديث للنهاية، قلت له:

لكن حين أراه، سأعرفه بالتأكيد.

قام الإمام ضارباً كفاً بكف، ومضى، فمضيت.

* * *

دخلت على أمي البيت، كانت تشاهد التلفاز، أخبرتها بما حدث، نظرت لي بشفقة، ملامحها يائسة، قلت لها غاضباً:

هل أبي موجود؟

من أين أتيت إذن؟!

* * *

في سفينة تتقاذفها الأمواج، البرق يضربها بشدة، تكاد تتحطم، يتخطفنا البحر في طريق مغاير، رفقة رجال لا أعرفهم، توقفت السفينة على صخرة، نزلنا عليها خوفاً من الغرق، على مد البصر، رأينا كهفاً مضيئاَ، سرنا ناحيته، كان النور ساطعاً، خرج لنا كائن محاط بالشعر، ميزناه بصوته الأنثوي، أشارت لنا بالدخول، استجبنا فاختفت، حتى رأينا رجلاً ضخماً، ابتسم، أسنانه سوداء، غارقة في الدم، قام من مكانه، ابتلع رفاقي واحداً تلو الآخر، ارتعبت، عرقي غزير، ضحك مني وقال:

اذهب للكنيسة، تجد أباك.

استيقظ من نومي فزعاً، وقد بلل الماء ملاءة السرير

* * *

اقتربت من الكنيسة، استوقفني ضابط، ليلة عيد القيامة، نظر لبطاقتي بشك، استغرب حين عرف دیانتي، سألني عن سبب دخولي، أخبرته أن أبي بالداخل، ازدادت دهشة الضابط، أمرني بالانصراف من أمام عينيه، توقفت مكاني، دفعني بقسوة، تماسكت، وأردت الدخول غصباً، أشار للعساكر:

إرهابي!

وقفوا مكانهم خائفين، ظنوا أن حزاما ناسفاً حول جسدي، وحده الضابط الذي تشجع، سدد لي لكمة قوية، سقطت أرضاً، وضع يدي خلف رأسي وثبتني مكاني، فتشني بحرص، ثم أخذ نفساً عميقاً، أمر رجاله بأخذي للقسم، استجابوا هذه المرة، ونزلوا على قفاي وجسدي بالصفعات واللكمات والركلات.

كانت ليلة سوداء، قضيتها على أيدي العساكر الثقيلة ولسانهم الموسي، ذنبني الضابط حتى الصباح، ثم تركني أذهب لحال سبيلي، ظن أنني مجنون، هو لا يريد وجع رأس، رحت للكنيسة ثانية، انتظرت قساً، جريت نحوه، ترجيته أن يدخلني الكنيسة، استجاب وصحبني إلى هناك.. قداس، الناس مستغرقة في الصلوات، فتشت عن أبي، لمحته من قفاه، وضعت يدي على كتفه، التفت، فصُدِمت، كان وجهاً يشبهه، فشربت ماء اليأس المقدس، وأنا خارج من باب الكنيسة، نزلت كف على كتفي، التفت، رأيت القس الذي صحبني للداخل، قال بوجه بشوش:

أبوك كان هنا بالأمس!

* * *

في الخمارة، أشرب منقوع براطيش، طعمه لاذع، يحرق أمعائي، أحس بالغثيان، أركض نحو الحمام، أتقيأ، دموعي تنزف من عيني، وجهي في المرآة، ظاهر عليه الإرهاق، خلفي رجل،

يضحك بشدة، يقول:

- أبوك كان هنا لأجل يروح عن نفسه.

اتسعت عيني عن آخرها، أضاف:

لكنه ذهب للمعبد!

لاحظ الرجل حيرتي فأضاف:

أصل دماغه هاربة منه منذ زمن!

التفت، فلم أجد أحداً، وهم؟.. الخمر تلاعبت برأسي، ثقيلة، جسدي خامل، أجرجر قدمي بصعوبة، أذهب للمعبد، كان أمره سهلاً، استوقفني الخادم، منعني من الدخول، أشار لفمي، رائحتي كلها خمر، المعبد له حرمة، صرخت فيه، ثم دفعته بقوة، وقع الرجل من الصدمة، وقبل أن يصل إلي كنت في المعبد، نقلت عيني في أرجائه، لا وجود له، صرخت غاضباً، كنت لا أزال تحت تأثير الخمر، سجدت، قدست، تشفعت بالرسول، المسيح، والكليم.. ارتعشت، أبكي، أهز رأسي، أفرك عيني، لا وجود له.

خرجت للشارع، صرخت بعلو صوتي: «أين أبي؟!».. الناس ينظرون لي ذاهلين، شفقة على وجوههم، أجهش في البكاء، أرأى أحدكم أبي؟.. صمت، نظرات باردة، ركضت بكل قوتي، ذهبت للبيت، فتحت الباب بغضب، غضبت أمي، كان منظري بشعاً، أحست بالذعر، اقتربت مني، قلت لها

بقسـوة:

هل أبي مات؟

قطع لسانك يا جاحد، أبوك حي

نظرت لها بحنق، ثم أغلقت الباب من جديد.

...

أبوك فوق قمة الجبل، اعتزل الناس وخلا بنفسه.

أتذكـر الكلمـة وأنـا عـلى وشـك الوصـول، همسـت بهـا عاهـرة وأنـا ألقـي بحمولـتي في فرجهـا، رعشـة النشـوة جعلتهـا تبـوح بالسر، تركتهـا وأنـا بلبـاسي، لـم أغتسـل مـن النجاسـة، رآني النـاس، حولـوا عيونهـم عـني، قدمـي تـأن مـن الصعـود، وصلـت أخـيراً للقمـة، رأيـت جلبابـاً لرجـل، مسـكته بيـدي، شـممته، فيـه رائحـة أبي، لكـن عليـه بقـع دمـاء جافـة، شـعرت بالقلـق، ومشـيت بخطـوات حائـرة، مذعـورة، نذيـر شـؤم، نعيـق غـراب في السـماء، مسبحة عـلى الأرض غارقـة في الدمـاء، عليهـا بصمـات أصابـع، تسـارعت دقـات قلـبي، تعرقـت، أنفـاسي تعلـو وتهبـط بسرعـة غريبـة، عيـني تتنقـل مـا بـين جهـة وأخـرى، لا أثـر لـشيء، أيـن جسـده؟!.. حـي؟.. جثـة؟!

أرفـع عيـني للسـماء، أقـف عـلى قمـة الجبـل، تتسـع عينـاي، أصرخ.. تـذل قدمـاي، اتدحـرج مـن عـلى القمـة:

أبي!

الكرسي البمبي

جالس على المقهى، أطرقع حجراً من المعسل، حيث أشاهد مباراة ليفربول وأرسنال، بجواري خليل المراكيبي، يسب مانيه بين لحظة وأخرى.. العبد الأسود!.. أتماسك حتى لا أبصق على وجهه، يقوم، فأحمد ربي في سري، ذهب إلى الحمام، فأتى أحد الزبائن وأخذ الكرسي البمبي، جلس به في ركن قصي، فابتسمت، حتى عاد خليل فلم يجد كرسيه، سألني والغضب يبدو على وجهه عن الكرسي:

بالطبع ليس في جيبي!

جز على أسنانه، وحمل غضبه على كتفه ومضى، بعد قليل استمعت لجلبة، وزعيق ثور.. قمت من مكاني، على بعد أمتار وجدت خليل يصرخ في وجه شاب من القرية الصغيرة المجاورة:

هو الكرسي كان قاعد عليه خول لأجل تأخذه دون استئذان؟

كان خالياً.

تقوم تأخذه؟!

تدخلت في الموضوع، محاولاً إنهاء الشجار، فالمباراة أهم من هذه التفاهات، فربت على كتف الشاب مواسياً، وأخبرت خليل بكثرة الكراسي، وأن الكرسي ليس كرسيه.. يزوم، وينظر لي متهماً:

الكرسي البمبي واحد لا غير في القهوة.

أمشط المكان بنظري، اتأكد من صدقه، يبدو الأمر كبيراً، والمباراة توشك على الانتهاء، الشاب يزفر في حنق، وخليل ينظر له متحفزاً، أسحب خليل من يده ليجلس من مكاني، يشخر ويطلق لفظ اعتراض، ويضرب بيده على الترابيزة، فيسقط كوباً على الأرض... يتحول لشظايا من الزجاج:

علي الحرام من ديني ما ارجع إلا وفي إيدي الكرسي البمبي.

أمد يدي لأسحب الكرسي، يمسكها الشاب، ويقول بتصميم:

على جثتي.

يبقى على جثتك يا روح أمك.

في غمضة عين، انقض خليل على الشاب كالعجل، نطحه برأسه ونزل عليه بكفيه الغليظين، التم الناس أخيراً.. سحبوا خليل بصعوبة، فانتهز الشاب الفرصة، كرامته المبعثرة

تشخر في صدره، يمسك بالكوب، وينزل به على رأس خليل.. لحظات ذهول.. دماء تنفجر من رأس خليل.. الشاب يركض كالممسوس، نحو قريته الصغيرة.. كفر المشمش.

* * *

في اليوم التالي تطور الأمر، اعتدت عائلة خليل على كهل من عائلة الشاب، سحلوه في الشارع، وخلعوا عنه الجلباب.. ألبسوه قميص نوم بالنهار.. لم يهب أحد لنجدته، فصفق أحد الواقفين وقال مشيداً «جدعان يا رجالة، خلي البلد ترجع لها هيبتها».. ثم أركبوا الكهل على ظهر حمار، حتى وصل لكفر المشمش، الدموع متحجرة في عينيه، رآه الناس بذهول، حاول النطق، لسانه يتمرد، أوصاله تتجمد فجأة... فيسقط من على الحمار، بلا حول أو قوة!.

* * *

حاول كبار القريتين إنهاء الصراع، من خلال مجلس عرفي، رفضت عائلة السايس، حين شقت زوجة الكهل جيب عباءتها صارخة:

وحق زوجي المشلول؟

لكن الضربة هبلت خليل.

لكنه ما زال رجلاً.

ترقب يعصف بالقلوب، في انتظار الاعتداء الأول الذي سيشعل عراكاً لرب السما.. الأيام تمر هادئة، حتى أتى المولد، بألوان الفرحة الزاهية، فقدم خليل رفقة الكثير من أبناء عائلته، الأمان تسلل لهم مع مرور الوقت.. الحق حين يتأخر يموت.. مزهوة صدورهم.. يتنقلون بين الخيام كالديكة، فجأة داهمهم أفراد عائلة السايس كالخفافيش، انقضوا عليهم كالصقور، غرسوا المخالب في الأجساد الخائفة، مطاوي وعصي وأسلاك كهرباء، كل ورزقه.

انتقل الخبر لبعض أهل كفر الخوخ، فهرعوا لنجدتهم، بدأت موازين العركة تتغير، فزعق أحد أهل كفر المشمش في الناس، وصمة عار حين تُضرب في قريتك، فهب الناس عليهم من كل مكان.. الدماء تتناثر، العظام تطقطق، تتهشم.. الجلد يتمزق، واللحم يظهر بشكله البشع.

صرخ أحدهم:

سيد المراكيبي مات.

توقف كل شيء في لحظة، حملوه وركضوا، حالمين بالنجاة.. لم يلاحقهم أحد.. فللموت جلالته في القرية، حتى لو كان موت عدو.

* * *

منعني أبي من الخروج من البيت، بين الجدران حمايتي،

استمعت لـه في البدايـة، لكنـني تسـللت بعدهـا للشـارع، أريـد معرفـة مـا يحـدث، تشـمم رائحـة الدمـاء.. كيلـو مـتر يفصـل بـين القريتـين، اسـتحال لبركـة دم، شـباب يتسـللون ليـلاً يحرقـون بعـض بيـوت كفـر المشـمش.. رجـل يرتـدي زي امـرأة ونقـاب ويطعـن عجـوزاً مـن كفـر الخـوخ، أقطـف عنبـاً وآكلـه لعلـني أسـكر وأغيـب عـن الواقـع، كفـت الشرطـة عـن التدخـل، لا بلاغـات، لا اتهامـات.. كل المحـاضر مقفلـة، ضـد مجهـول وأنـا المذنـب الوحيـد.

لو منعت الشاب من أخذ الكرسي البمبي؟!

ازداد غضـب أهـل كفـر الخـوخ، القريـة الكبـيرة، فقـرروا إنهـاء الأمـر، رفـع تجـار المخـدرات والسـلاح رايـات الكفـاح، الجهـاد في سـبيل قريتهـم، ليـل أسـود مـن قـرن الخـروب.. هجمـوا عليهـم بالأسـلحة البيضـاء والطبنجـات.. غـزوة همجيـة.. دهشـة، خـوف، صريـخ، هلـع، اسـتغاثات، طلقـات، دمـاء.. أرواح تزهـق، وأجسـاد تُسحق.. الجـاز يُـرش في الشـوارع، أعـواد ثقـاب تلقـى.. النـار تلتهـم مـا يقابلهـا.. الجحيـم!.

* * *

تمطـت الحكومـة أخـيراً، قـررت إنهـاء المهزلـة، وتدخـل كبـار القـرى الأخـرى لتصفيـة الحسـابات وتنقيـة الأجـواء.. دفعـا حمـدان الأعـوج تاجـر المخـدرات وصفـوان النطـع تاجـر السـلاح الكثـير مـن الأمـوال لأهـل كفـر المشـمش.. قبلوهـا.. الـرد يعـني

دماء جديدة، والمقاومة دون سلاح حماقة كبرى.. تعانق كبار القريتين، وكبيرا عائلة السايس والمراكيبي، وانتهى العراك، والجمر تحت الرماد.

ذهبت للمقهى، نظرت في المكان، أفتش عن الكرسي البمبي، لا وجود له، سألت عم زغلول صاحب المقهى عنه، فنظر لي بدهشة، كأنني مجنون أهذي، وقال:

هذه قهوة رجال، والبمبي للحريم، وعمر القهوة ما كانت ولا هتكون للحريم.

والعركة بين القريتين.

لم يكن هناك عركة... روح اتغطى حلو.

خرجت من المقهى ذاهلاً.. هل يكذب الرجل؟.. لكن الكرسي لا وجود له.. والدماء؟.. شربات.

عدت للبيت واستمعت للنصيحة، تغطيت جيداً ونمت.. كنت محموماً!.

الحضن

وقفت نادين في حيرة من أمرها، يدها على خصرها، مفكرة بعمق، قالت:

كله إلا مشهد الحضن.

صُدِم المخرج الصغير، فار دمه، أخبرها أنها وافقت، من بعدها وهي دميته، يحركها براحته.. تجاهلت غضبه، أصرت على موقفها، بدأ المخرج يشعر بالتضاؤل، لن يستطيع الشخط والنطر، فكر قليلاً، لا أحد حصل على أجر، فيلم قصير بجهود ذاتية، لان قليلاً، هاتف المؤلف، أخبره بالوضع، فأتى صوت المؤلف صارماً:

لا بد من الحضن.

شرح له المخرج الأمر، اقتناعه بوجهة نظره.. الزوج مسافر منذ عدة سنوات.. لحظة العودة.. نظرات الشوق.. الحضن.

عاد إليها المخرج، حاول بكل الطرق أنا يلين دماغها الناشفة.. قالت:

عيون أصحابي في الكلية تأكلني.

أدرك المخرج خطأه الفادح، فريق العمل كله من كلية واحدة، أي فعل سيحدث له تفسيره.. ربما وصفها أحدهم بالشرموطة!.

هذا فن.. قال المخرج

أخبرته أن الناس لا تفكر هكذا، لا تريد دوشة ووجع دماغ، في هذه اللحظة، ظهر الممثل «معتز»، قال:

أنا جاهز للحضن يا ريس!

كتم المخرج الضحكة بداخله، نظرت له نادين من فوق لتحت.. أحس معتز أنه كالأطرش في الزفة.

الحضن بخ! قال المخرج.

أحا.. أنا وافقت على الفيلم بسبب الحضن.

نعر معتز بعلو صوته، ضرب كفاً بكف، واستعوض في الفن الذي راح في ستين داهية!.

تجول الصداع في رأس المخرج، سحب معتز من ذراعه، أدخله الغرفة وطلب منه الهدوء لدقائق حتى يجد حلاً..

هاتـف المؤلـف مـن جديـد، أخـبره أنـه في السـكة، ربـع سـاعة بالكثـير.

كانـتناديـن في مكالمـة هاتفيـة، تحـاول اسـتمالة حبيبهـا بـكل الطـرق حـتى يوافـق.. حضـن أخـوي، قلبهـا معـه.. لـو لـم تحبه هـو فلمـاذا مسـتمرة معـه؟.. لا بـد أن يثـق فيهـا أكـثر.. هـي تصونـه طـوال الوقـت.. مجـرد حضـن والقيامـة لـن تقـوم، حاولـت.. وحاولـت، لكنـه قـال في النهايـة:

أصحابنا سيقولون أنني رافع قرنين!.. على جثتي.

قالت الطفلة الصغيرة الجالسة في أحد أركان الشقة:

أنا زهقت.

نظـر لهـا الجميـع فجـأة.. دورهـا في الفيلـم حيـوي، ذهبـوا لهـا جميعـاً.. منحتهـا ناديـن اللبـان، ورفعهـا معـتز لصـدره وحضنها بحـب، قالـت ناديـن:

صاحبك تعبان على أي واحدة والسلام.

دخـل المؤلـف الشـقة فجـأة، السـيجارة في فمـه، السـماعات في أذنيـه، نظـر للجميـع متفحصـاً للحظـات.. صافحهـم ضاحـكاً، كانـت المـرة الأولى الـتي يـرى فيهـا ناديـن.. دق قلبـه، توتـر، المخـرج عـلى أذن ومعـتز عـلى أخـرى، ناديـن ترفـض الحضـن.. المشـهد ضروري.. اقنعهـا.

طلب المؤلف من نادين دقيقة على انفراد، دخلا الشرفة.. نظراته تفضحه، قال لها:

طلباتك أوامر.

الحضن.. «أشارت علامة المقص»

هز رأسه موافقاً، خرج المؤلف بها، أخبرهم أنه سيعوض الحضن بالنظرات.. صرخ معتز ودب في الأرض كطفل صغير، لعن السينما ورجالها المخنثين.. قال:

أصلهم خلفوا بالنظرات!

توترت الأجواء، وبدأت الطفلة الصغيرة تفقد صبرها، تطالبهم بالرحيل.. همس المخرج في أذن معتز: «ليلة حمراء على حسابي وعدي اليوم».. ابتسم معتز وأخبرهم باستعداده.. قامت نادين وحاولت الانسجام في الدور على قد ما تقدر.. شخر المؤلف في داخله عندما وجدها فقيرة الموهبة، حين تنطق، تفتقد الكلمات لكل معنى.. حذف الكلمة خلف الكلمة.. رآها في الصمت قد يخرج منها شيئاً.. العرق يتزايد، الصبر ينفذ.. الزوج يعود.. نظرات على بعد.. بدون تلامس.. يدخل الزوج، يحمل طفلته بين ذراعيه.. يحتضنها ويغلق الباب.

يصرخ المخرج (Cut).

يبتسم الجميع.. فركش.

* * *

أحس بغصة في صدري، إزالة الحضن جعلتني أحتقر نفسي، تخليت عن خَلقي في ثانية، لكن قلبي المسلوق في ماء سحر نادين هو السبب، صراع لعين، راسلتها على الواتس آب.. حدثتني بانسيابية، انجذبت.. ظننتها عبيطة في البداية، جاريتها.. سحبتني خلفها.. تعودت على وجودها، ثم اختفت.

جن جنوني، خاصمني النوم، حاولت الاحتفاظ بكبريائي قدر المستطاع، ظهرت، بعثرتني، لهثت، أرسلت لها:

مشتاق.

رأت الرسالة.. صمت.. غضبت.. حرنت كثور، انتظرت.. برقت عيني.. وجدتها تكتب.

* * *

كنت في ذهب يومين مع حبيبي!

أردت إنهاء المهزلة، أحببت نظرته في المقابلة الأولى، ضعفه أمامي.. طفل كبير عثر على ضالته، رغبة بريئة!.. تمنيت بعدها امتلاكه، كنت متأكدة أنه سيحاول، ابتسمت عندما رأيت رسالته.. الصيد وقع في المصيدة، أغلقتها عليه بعدما تيقنت أنه سلم، واختفيت.

نظر للرسالة.. لم يعقب.. ثم اختفى من حياتي.

* * *

وقف المخرج أمام لجنة التحكيم، أخبره أحدهم بلا منطقية مشهد النهاية، عودة بعد طول غياب، بان على الزوجة من أول الفيلم الشوق.. الاحتياج.. حالة شبق كبيرة لرجوعه.. ويكون التلاقي بدون تلامس!.. صمت المخرج للحظات.. توتر.. ثم نطق فجأة قائلاً: السينما النظيفة يا أستاذ.

رد عليه ضاحكاً: يا بني السينما لا تكون سينما إلا لو كانت وسخة.

* * *

حزن.. غم.. يأس.. لوم.. تبادل اتهامات.

اجتمعوا في المسرح يوم إعلان النتيجة.. ذهول تام، حصد فيلمهم الجائزة، احتضن المخرج المؤلف، معتز ينط من الفرحة، وعلى بعد خطوات منهم تقف نادين، تنظر في عين شاب بوله، يشبك ذراعيه خلف خصرها ويحضنها بقوة، طاف الحزن في عين المؤلف، ونظر إليهما معتز قائلاً بحسرة: حضن حلال.. الوسخة!

نقل المخرج نظره بينهم.. ثم انفجر في الضحك.

امرأة في الجنة

أقـف بداخـل الجنـة، بعـد عبـوري الـصراط كالـبرق، النسـوة قبـلي وقعـن فريسـة للخطاطيـف، كنـت أحـس بذعـر انتصـب لـه شـعر عانـتي، أغمضـت قبـل السـير، والآن.. هنـا.

أرى ملكـين بجناحـين كبيريـن، ملامحهمـا محايـدة، يأخـذاني مـن يـدي رغمـاً عـني، أحـاول الـصراخ، لا صـدى رغـم الفـراغ.

تقـع عينـاي عـلى أنهـار تجـري مـن تحـتي، أشـجار، عصافـير، أتحـرر مـن خـوفي بالسرحـان فيهـم، تشـم أنفـي رائحـة الـورد، اهـدأ.. وبعـد لحظـات نتوقـف.. أراه.. هـل يوجـد غربانـاً في الجنـة؟!

* * *

أخـبرني حـين كان السريـر شـاهداً عـلى هزيمتـه «أنـت قحبـة، لا تكتفـين!» شـمرت أنفـي، فصفعـني بكـف يـده الخشـن، أحنيـت

رأسي وابتلعت قهري في جوفي.. سحب الغطاء عني وتركني عارية.. ارتجف من البرد.

* * *

يتشممني ككلب، ويتحسس جسمي كحانوتي، الملكان يرقبان الوضع صامتين، استغيث بهما، لا حركة.. أرى قروناً تنبت في رأسيهما، والعيون مسلطة على لحمي البض.. تتفحش اليدان، ادفعهما فجأة، وانظر لزوجي بقرف، ثم التفت للملكين:

أين حبيبي؟!

يردان في نفس واحد:

أنتِ ملك زوجك.

حتى في الجنة؟!

* * *

لم أحبه، اشتهاني، ودخل بي بعد أن سدد لأهلي الأقساط، فرحوا به لأنه عريس لقطة، واللَقطة كان عربي لغريب، وقلبي في جيب مثقوب، فحبيبي لم يملك ما يسيل لعاب أبي.. فتركت الغريب يثقبني في أول ليلة، ثم ابتلعته لباقي السنوات.

* * *

نائمة في الفردوس، أحلم بحبيبي الضائع، أمنيتي المؤجلة، التي شنقت في الجنة.

النوم ملاذي الوحيد، ألتقي فيه بالمعشوق، ونخزة على كتفي تفيقني، فأرى أحد الملكين، يشدني فأقف على حيلي، ويهبط بي درجة تلو أخرى، استوقفه لأستفهم، يخبرني بالهبوط للعيش مع زوجي:

لكنني في الفردوس!

المرأة حيث يسكن زوجها.

* * *

طعنني بسكين، اهدر إرثي فتشاكلنا، انسالت الدماء، وشهقت ميتة، ظننت أني تخلصت منه للأبد، سألامس يد حبيبي، وحين رأيته أمسكت الوهم.. سألت الملاك الآخر:

هل يغفر الله لقاتل؟

يصمت، ويفكر للحظات، فأعيد صياغة السؤال:

هل تتزوج المرأة قاتلها؟

أطرش، كأنه متواطئ مع زوجي، ربما ذكر، أصرخ في وجهه:

أريد رؤية الإله.

ينظر لي ذاهلاً، تتبدل ملامحه، وينكمش جناحاه:

وهل يُرى الإله؟!

أخبط رأسي في طوب الجنة الذهبي، الدم لا يسقط، لكن الصداع يضرب رأسي، أرى فجأة سكيناً، أهرول ناحيتها، أحملها في يدي، واركض لبيت زوجي.

أبصر نساء كثيرات يحطن به، وامرأة تبكي وحيدة في ركن قصي، استوقفني منظرها البائس، سألتها بشفقة:

ما بك؟

انتظر دوري وأنا متعبة!

لا بد أن يملك زوجك ١٠٠ قضيب حتى لا يطول الانتظار!

تبكي المرأة فأتركها، أتسلل من بين الحوريات، يراني، فتتسع عيناه حين تقع على النصل اللامع، لحظات، وأغرسها في بطنه، يضحك كأنني أزغزغه، ولا دماء تنزف من جسمه، احتار واقف متجمدة، يصفق على صدري، فترقص الحوريات، ادعه يائسة واجلس بجوار المرأة الباكية.

أسند ظهري للحائط، وانتظر دوري أنا الأخرى على فراش زوجي وقاتلي في آن واحد.

البواب

الغرفة غارقة في الظلام، ريقي جاف وحلقي قاحل، أنهض من على سريري، العرق يتفصد من مسامي... السواد غير مؤذٍ للعين والبياض قد يؤدي إلى العمى، أشعل النور، وأجلس على كرسي أمام الكمبيوتر، عقلي مشوش، وبداخلي بركان، أتصفح أحد المواقع الجنسية، عامر بما لذ وطاب، لكن الاعتياد لا يبعث على المتعة، اشمئز من نفسي قبل التحليق، ريشي منتوف وأقدامي مقيدة، وربع قرن انقضى دون أن أشتم رائحة امرأة.

* * *

أسير في الشارع، حاملاً في جيبي كنزي الثمين، ألف جنيه ادخار ٤ أشهر، أصل لملهى ليلي في شارع الهرم، أدخل لأتصيد سمانة لعلها تحملني على جناحيها لأجرب لذة التحليق، أجدها بعد وقت قصير، سمراء، فارعة الطول، ذات نهدان عامران وددت الزقزقة بينهما، تجلس وحيدة،

تتفحصـني بنظـرة طويلـة، أتوتـر قليـلاً، تغمـز بعينهـا وتعـض عـلى شـفتها السـفلى، الـبركان يفيـق مـن غفوتـه، تقـترب مـني، وتهمـس في أذني بصـوت مائـع:

كم ستدفع؟

أخـرج مـن جيـبي مـا تبقـى مـن كـنزي، تنظـر للنقـود بـبرود، ثـم تسـحبني خلفهـا وتخـرج مـن الملهـى الليـلي... اللهيـب يتصاعـد!.

* * *

ندخـل سـوياً مـن بوابـة العمـارة، رغبـتي تـزداد مـع كل خطـوة، يقطعهـا عـلي صـوت البـواب:

إلى أين؟

يعرينا الخوف، تتعلق المرأة بكتفي، ارميه بنظرة متوترة:

إلى شقتي.

ينظر لعاهرتي، ثم يغمز لي

لكن!

أجـز عـلى أسـناني، فيبـتزني بابتسـامة خبيثـة ويشـير بإصبعـه لأعـلى:

والسكان يا بيه!

شقتي!.

لحين يا بيه!

وأنت تقبض راتبك مني.

ومن باقي السكان يا بيه.

لكن أنا حر.

والسكان برضه يا بيه.

أنت تمنعني؟

حاشا لله، لكنه حق السكان يا بيه.

أنت تعمل عندي.

عند الكل يا بيه، لأجل كده محدش سيدي.

انظر له بحنق، أود الانقضاض عليه، تمسك المرأة بيدي وتُخرج من حقيبتها ورقة من فئة ١٠٠ جنيه وتمنحها له، تلمع عينه ببريق الطمع، ويبتسم في خبث، أقول بغيظ.

قواد!.

* * *

أغلق باب شقتي، تسألني المرأة عن الحمام فأدلها، مازلت متوتراً وأعصابي مشدودة، اسألها قبل أن تغلق باب الحمام عن اسمها:

ياسمين.

أذهب إلى غرفتي وأغير ملابسي، ثم أعود إلى الصالة، تخرج ياسمين بعدي بلحظات، بقميص نوم يكشف عن منتصف صدرها، وجل ساقيها، البركان يخرج من قمقمه، ترقص، يثور، تتغنج، يزأر، تتمايل، يعوي، تكشف عن نهديها كاملين، يندفع البركان... تتلوى، سكون... تهتز، موت... تقترب، قبر... ترتمي فوقي فأدفعها برفق.

لا أستطيع.

يبدو عليه الصدمة.

هل أنت...؟

لا تكملِ، إنها المرة الأولى.

حتى لو.

عقد كامل من المشاهدة كفيل بقطع الحرارة حين التسخين.

تقول بشفقة:

مسكين... فالممارسة شيء آخر.

أصمت، الخزي يقتلني، ترتدي ياسمين ملابسها وهي ترمقني بنظرات حارقة، تمضي وتصفق الباب خلفها، لا يبقى منها سوى رائحتها الغاوية.

* * *

أستيقظ باكراً، الكوابيس أقضت مضجعي، أنظر للمرآة، وأتفحص جسمي، ضمور ما أصاب فخري، حلقي جاف وصداع يضرب رأسي بشدة، صوت قهقهة امرأة يأتيني من دبري، ألتفت، لا أجد إلا الفراغ، أعيد النظر للمرآة، ضحكة ياسمين الساخرة ترمقني، الدم يتصاعد في عروقي، أضرب سطح المرآة فينهمر الدم من يدي وتختفي صورتها، قهقهة تداهمني، أنظر فلا أجد إلا الفراغ.

* * *

أهبط درجات السلم بعدما ارتديت ملابسي، أبصر البواب أمامي، يضحك، أسنانه متعفنة، اشمئز، يقول:

هون عليك يا بيه.

انظر له مستفهماً، التعب ظاهر علي.

فضيت شحن بسرعة امبارح.

يبدو علي الذهول، أريد أن أبصق عليه، أمسك نفسي في اللحظة الأخير.

كانت نازلة باين عليها يا بيه، وأنا لاقط إشارة

أتلعثم، ويتشتت تفكيري، يواصل:

سرك في قبر مردوم عليه بالتراب يا بيه.

اخرج من جيبي النقود فيخطفها مني، أنظر له ذاهلاً، يمنحني عشرين جنيهاً «كفاية عليك»... أزمجر، وأكور قبضة يدي، يضحك ساخراً بنظرة على يدي المربوطة بشاش، فتتراخى قبضتي، وأكتم ثورتي في جوفي وأمضي باصقاً على هذه الدنيا.

* * *

عدت مساءً، أخشى الالتقاء بالبواب، صعدت لشقتي، وأشعل النور، لأجد ياسمين بقميصها الذي يكشف عن نصف صدرها ويفصح المجال لساقيها في التعبير عن نفسيهما، أبتسم، فرصة أخرى لإثبات الذات... أهرول نحوها وأهم لمعانقتها، تختفي وتحتضن ذراعيا الفراغ، أصرخ لكنها صماء، أدخل لغرفتي وأغير ملابسي، قهقهات تأتي من خلفي، والبواب بضحكته الساخرة وأسنانه الباعثة على الاشمئزاز يظهر أمامي، أكور قبضتي هذه المرة وأسددها في وجهه فيختفي، يظهر وجهه مرة أخرى بنفس الضحكة المقززة، أعاود الكرة، يظهر من جديد، والقهقهات من خلفي تزيد، أصرخ.. «أنت لست رجلاً»... تدمع عيني،

أخلع حزامي واجلد نفسي بقسوة، «أنت لست رجلاً»... الدم ينزف من جلدي، قهقهات من الخلف تعربد في أذني، ضحكة البواب الساخرة، وجه ياسمين الناقم علي... «مسكين، فالممارسة شيء آخر»... أصرخ، أستغيث، ألقي بالحزام وارتمي على الأرض باكياً.

أفيق مذعوراً، الساعة تقترب من الثانية صباحاً، طيف البواب يحاصرني، يضحك ساخراً، قهقهة، أقوم من على سريري مرتعداً، الخوف يتلاعب بي، أهبط درجات السلم حافياً، وأركض خارجاً من البوابة، أعدو كأنني أسابق الريح، ألهث، ويغلبني التعب، أتمدد وأشبك اليدين خلف رأسي... الهواء منعش والأطياف تختفي، لحظات... ويأخذني النوم في أحضانه فنتحد سوياً في عناق، خال من وجه ياسمين، ضحكة البواب... والكوابيس.

الموتى لا يتكلمون

أرتـدي السـماء، وأنتعـل الأرض، وأسـير بـين المتظاهريـن، عـلى كتفـي الأيمـن نـسر، وعـلى الأيـسر خفـاش، لا أحـد يلتفـت لي، استمع لهتافهـم «الشـعب يريـد الحيـاة».

خارجـة منـذ دقائـق مـن مقـبرتي، الرمـال مـا زالـت عالقـة بجسـمي العـاري، حنطـوني منـذ آلاف السـنين، حـاول بعدهـا أصحـاب التابـوت وحملـة الخشـب والبـدو فـك الطلسـم، النتيجـة... فشـل ذريـع!.

اسـتيقظت مـن رقـادي، عـلى الصيحـة الـتي انتظرتهـا طويـلاً، كنـت فقـدت الأمـل في البعـث، واسـتكنت كنقـش عـلى جـدار مقـبرتي، أنهـض عـلى صرخـة الشـيطان... حانـت قيامـتي.

يظهـر عـلى مـد بـصري، رجـال مدججـون بالسـلاح... شـوارب، كروش...خفـاشي ينعـق فـوق رأسي، يواصـل المتظاهـرون

السـير، يعلـو هتافهـم الحمـاس، يرفعـون السـلاح، يطـير الخفـاش، وتبتلعـه السـماء، يطلقـون النـار مـن البنـادق، الأجسـاد تتسـاقط، والدمـاء تسـيل، يركـض الكثـير، ويهـرب نـسري، ليسـتقر بـين نجـوم أحـد الرجـال المدججـين بالسـلاح، يؤلمـني هـروب خفـاشي وخيانـة نـسري، يبتسـم لي سـاخراً، فأشـعر بمـرارة في روحـي، اتأمـل جسـمي العـاري... أراه غارقـاً في الدمـاء!.

فتحـت عيـني، ممـددة عـلى سرير بسـيط، في غرفـة أسـمنتية، سـألت عـن سـبب غيـاب الطـلاء، أخـبرني أحدهـم «حـتى لا نشـوه الفطـرة!»... حملتـني سـواعد فتيـة حـين سـقطت في بركـة الدمـاء، لـم تصـل لي الرصاصـات، لكـن الابتسـامة السـاخرة، وخيانـة نـسري القابـع بـين النجـوم، مـا زالتـا يسـببان لي الأرق.

شـاركت مـن جديـد في المظاهـرات، هـذه المـرة؛ رأيـت وجوهـاً جديـدة، لحـى مطلقـة، وزبيـب عـلى الجبـاه، نظـرات تتلصـص عـلي، أشـعر بسـخونتها تلفـح جسـمي الحنطـي، الكولـيرا تمـضي في الـوادي، أحـرك لسـاني فـلا يخـرج صـوتي، خائـف أن تنكشـف عوراتـه لآذانهـم الحانقـة!، يختفـي الصـدى، فأتيـه بـين المتظاهريـن، أخـشى السـقوط، لكـن صـوت الرصـاص يفيقـني، هـذه المـرة، رأيـت في عـين نـسري نظـرات الذعـر، انقـض الثـوار عـلى الرجـال المدججـين بالسـلاح، فـروا وقفـز نـسري مـن بـين النجـوم الخافتـة، واسـتقر عـلى كتفـي... صفعتـه فطـار هاربـاً، خوفـاً مـن سـوء المصـير.

أعـادني أحـد الشـباب للغرفـة الأسـمنتية، نجـح الثـوار واسـتردوا الحيـاة، فـرح مؤقـت أجهضتـه الأيـام، حـين أتـاني رجـلان، واحـد بجلبـاب أبيـض والآخـر بفسـتان أسـود.

الأبيض هو الطاعة.

والأسود هو العصيان.

العصيان أخرجني من المقبرة.

عاهرة!.

مضى، وبقى الآخر، أخبرته:

لكنني أريد البقاء كما أنا.

غير ممكن، فلا بد من الرداء.

هززت رأسي رافضة، فجز على أسنانه بغيظ:

ستكونين خبزاً للجياع!

كتمت ضحكتي في جوفي... ذهب!.

نزلـت الشـارع بعـد أيـام، أمـشي في الوسـط، تشـدني لحيـة وزبيبـة مـن ذراعـي الأيمـن، وجلبـاب ممـزق مـن ذراعـي الأيـسر، أحـاول مقاومتهمـا، أكتـم صراخـي، شـاب بجناحـين يرمـق المشـهد فـوق مسـتوى رأسي، لحظـات، ينخلـع كل ذراع في

جهـة، فيسـقط ريـش الشـاب، ويقـع حـين أقـع عـلى الأرض، يجعـل مـن جناحيـه المكسـورين، وسـادة لنومـي الثقيـل.

أفيـق بعـد فـترة مـن الزمـن، دون ذراعـين، جلبـاب أبيـض عـلى جسـمي، أصمـت، وأمـضي في الشـارع، أصحـاب الفسـاتين السـوداء يتهمـوني بالخيانـة، يرمـوني بالبيـض، ويبـول عـلي صغارهـم، فأعـود لغرفـتي الأسـمنتية، افاجـأ.. مطليـة باللـون الأبيـض!.

أعيـش في كهفـي الداخـلي، خـارج حـدود الزمـان، باحثـة عـن ذاتي الضائعـة، يـدق البـاب، فأقـوم، وقبـل أن أصـل إليـه، يترنـح تحـت وطـأة الأيـدي الثقيلـة، أرى نـسري هـذه المـرة بـين سيفين، تغير الوجـه وظلـت الابتسـامة السـاخرة، بداخلهـا كراهيـة تذيـب العظـام، أحـاول الـكلام، يخرسـوني، ويضعـون كمامـة فـوق فمـي... يحملـوني ويذهبـون بي في سـكون الليـل، لمقابـر أصحـاب الجلاليـب الممزقـة، أحـاول المقاومـة، صفعـة عـلى خـدي الأيمـن تجمـدني، أصمـت، ويحفـرون القـبر.

روحـي تتبعـثر، يضعـوني بداخلـه، انظـر لـه بـلا مبـالاة، مـا زالـت الابتسـامة السـاخرة، أغمـض عيـني، هـذه المـرة دون تحنيـط... ويهيلـون الـتراب.

ملحوظـة: هـذه مجـرد تهيـؤات عـلى ورقـة بيضـاء، فالمـوتى لا يتكلمـون!.

مصدية

أدخل على أبي وعمي في صالة البيت، أبي ساهم، وعمي يضع رأسه بين كفيه، نحيب أمي يأتي من المطبخ، يبدو أنها تقشر بصلاً! اسأل عن أختي المشارفة على العشرين، لا جواب...

أفتش عنها في الغرف، لا أجدها، فأدخل المطبخ، عباءة أمي ممزقة، والغم يلقي بظلاله على وجهها، أسرح بصري في المطبخ، فلا يقع على البصل!... حينها أدرك الحقيقة، فأسحب سكيناً من الدرج، دون أن تلاحظني أمي، وأعود إليهما، محملاً بغضبي، اطعن عمي الأربعيني في رقبته، يشهق من الصدمة المشبعة بالألم، يسيل الدم، وينظر أبي مصعوقاً نحو ما يحدث، لسانه مصلوب على خشبة حلقه، اقترب منه، وأشد سلك التليفون الأرضي، أنظر له بحنق، وألف سلك التليفون حول رقبته، لم يقاوم، فأرفعه على

أحد الكراسي، وأعلق السلك في حلقة حديدية في السقف، ثم أهبط، وأشيعه بنظرة أخيرة، عيناه مطفأتان... ادفع الكرسي بقوة، يترنح كترنح جسد أبي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة... نظرت لهما ضاحكاً.. ثم مضيت!

أستيقظ من النوم فزعاً على صرخات أمي، أركض مذعوراً، فأرى عمي مطعوناً وأبي مشنوقاً، وأمي تشق صدرها من الصدمة، أركض لغرفة أختي لأوقظها، لكنني لا أعثر عليها... فظننت أنني مازلت في حلمي، فعدت لغرفتي لأبحث عن نضارتي، قد يكون نظري الضعيف وقلة نومي ضللاني بالهلاوس، أشعل النور فأجد المصباح محروقاً، أسب في سري، وأتلمس طريقي في الظلام، محاذراً ألا تمتد خطواتي بعشوائية، فتنسحق نضارتي، لكنني أعثر عليها في النهاية على سريري، ألبسها وأعود من حيث أتيت... كان المنظر بشعاً!

* * *

تصغرني أختي بخمس سنوات، تحمل بشرة أبي السمراء، وملامح أمي العادية، فصارتا لعنتها اللتان تطاردها، صرخ أبي في وجهها ذات ليلة لأن الشاي كان خفيفاً، بكلمات لم أتبين منها سوى:

يا مصدية!

وحـين تشـمر أنفهـا عندمـا تطلـب أمـي منهـا المسـاعدة في أعمـال البيـت:

اومال لو كنتِ مثل شق اللفتِ كنتِ عملتِ إيه؟!

أخبرهـا أحـد الشـباب في مرحلـة المراهقـة أنهـا مثـل شـق اللفـت، لـم تصـدق في البدايـة، لكـن مطارداتـه، لمعـة عينيـه، وارتجافـة جسـمه جعلوهـا تمنحـه فرصـة، أخبرتـني وقتهـا:

أنا أحب!

عانقتهـا فاطمئنـت، وضعـت يـدي عـلى خدهـا فابتسـمت، قلـت لهـا:

لا تخبري أحداً، فالحب لا ينبت هنا.

اومأت برأسها موافقة «لا تعطِه سوى قلبك» أضفت محذراً

تبتسم، وتلمع عينها ببريق السعادة.

* * *

أتـت الشرطـة، ذاهـل عمـا حـولي، وجـدوا بصمـات أبي عـلى السـكين، وعـلى سـلك التليفـون، سـأل الضابـط أمـي:

هل دخل أحد للبيت؟

لا...

صمتت لثوان متفكرة، أضافت:

كفر عن ذنبه فقط.

أي ذنب؟

قتل ابنته؟

ألم تنتحر بالسم؟

بل سقاه لها!

حملـوا الجثـة ورحلـوا، وبعـد أيـام أُقفـل التحقيـق، انتحـر أبي بعدمـا قتـل عمـي... عـاش قاسـياً ومـات كافـراً!

* * *

كنـت ذاهبـاً إلى فـرح صديقـة خطيبـتي، هديـر تغـط في النـوم، أوقظهـا فتتثـاءب، أقـول لهـا:

قومي اكوي لي القميص.

ردت دون وعي كامل:

ما تكويه أنت، ولا ذراعك مشلول.

سـحبتها بعنـف، فأحسـت بالفـزع، اتهمتـني بالجنـون، فكـررت طلـبي بغضـب، لـم تسـتجب، ممـا زادني غضبـاً، فكـدت انـزع شـعرها مـن رأسـها، وأنـا اسـحبها ناحيـة الـدولاب، فتأوهـت

من الألم، وامتد صراخها لخارج البيت.. أخرجت القميص، وقلت لها بنفرة:

مصدية!... أومال لو كنتِ مثل شق اللفت كنتِ عملتِ إيه؟!

ثم منحتها القميص.

* * *

قعدت في شقتي لأيام في القاهرة، هاتفني قريب لي، أخبرني بصوت كرائحة الثوم بموت أختي، صرخت، سببت له الدين والملة، حاولت الاستفسار:

مرمغت شرف العيلة في الوحل.

رميت الهاتف في الحائط، عاد إلي ساقطاً كشرف أختي الميتة!

* * *

صرخت في وجوههم، كانت المرة الأولى التي أثور فيها في حضور أبي، قال عمي الذي كان جالساً بجواره:

استرجل ولا مصر جعلتك طري!

قال أبي بغضب مكتوم:

أختك وطت رأسي

أضافت أمي باكية:

غلطت وتستأهل القتل، لكنها ابنتي الوحيدة.

تركتهم ودخلت لغرفتي، الجدال لن يضيف جديد، الزاني تركوه، وأختي نائمة في أحضان القبر، هذا هو الشرف الذي تعلمته في بلادي؛ ذكر، والخطيئة أنثى كأختي القتيلة... حاولت النوم، لكن كلماتي لها ما زالت تطاردني... أصابني الأرق... هذيان!... حتى سقطت مغشياً علي!.

* * *

أستيقظ، وأشعر بالصداع، الجدران حولي بيضاء، وحيداً في غرفة غريبة، دون أمي... أضع سلك التليفون في يد أبي، وأمسح السكين بملاءة ثم أضعها في يده الأخرى، وألبس قفازه، كان بجانبه... أشعر بدوار، عيناه متسعتان ولسانه متدلي... تشوش في الرؤية يصيبني، أعود للنوم في غرفتي، ويظهر لي كل شيء في حلمي الصغير، صرخت أمي، فقمت فزعاً... أضرب رأسي في الجدران البيضاء، يُفتح الباب فجأة، ويدخل طبيب، برفقته ثلاثة ممرضين، يطوقوني، فأحاول مقاومتهم، يحملوني، ويضعوني على السرير، يخرج الطبيب حقنة، فيمسك أحدهم ذراعي بشدة، يحقن الطبيب المهدأ في عروقي... إظلام تدريجي... استغرق في نوم عميق!.

الغطاء

يستيقظ من النوم لاهثاً، أنفاس متقطعة وعقل مكدود، يقوم وسط ظلام الغرفة، يستند على الحائط خشية التعثر، يضع إصبعيه على زر الكهرباء فيأبى الاشتعال «دين أبوك أيها الجالس على الكرسي!».

الرؤية مشوشة، والاهتداء إلى الطريق الصحيح أمر عسير في ظل العمى المؤقت، يصل أخيراً للثلاجة، يفتح بابها ويتحسس مفاتنها بحثاً عن زجاجة ماء، يزفر في حنق، يجدها في النهاية، ويبتسم حلقه الجاف، يرفع الزجاجة لفمه ويفرغها في حلقومه، يسترد أنفاسه ويشعر بالدماء تجري في عروقه من جديد.

يعود للنوم مرة أخرى، يرتمي على السرير ويغمض عينيه، تلمع صورتها في ذهنه، تقف شامخة كطاووس، ينحني لها فؤاده المتيم، تبتسم له بسخرية، تبرق أسنانها الشهباء،

يقترب منها، نظراتها متغطرسة، بات على مقربة منها، يمد لها يده من جديد، لا يحصد سوى السراب،

تقول «لا يلامس السماء إلا من يمتلك الأجنحة».

يستيقظ خائفاً ويطلق سبة غضب «يبدو أن الحب والشخير لا يجتمعان على سرير واحد!».

* * *

السماء تبرق والرياح تعوي، يضع الوردة في جيبه ليقيها من المطر البادئ في التساقط، تخرج من إحدى السينمات، معطف من الفرو على كتفيها يكسبها بهاءً فوق بهاءها، ينظر لها فتثبت عينها عليه، يشعر بها تخترقه، تعريه من الداخل، توتر يضربه كإعصار، بعض العرق يتفصد من جسمه، يقف مكانه فتقترب منه، يخفض بصره فتضع يدها على ذقنه، يرتعش، ترفع ذقنه فتتلاقى النظرات، يحس بالذوبان، يخرج من جيبه الوردة ويمنحها لها، تمسكها، ضحكة هازئة تولد على شفتيها، ترفع الوردة لأعلى ثم تتركها تسقط من يدها وقلبه معها ليختنقا سوياً تحت المطر.

تجلس على شاطئ الإسكندرية، يداعبها النسيم، يغازلها الموج، والبحر يريد إعادتها لأحضانه، هربت من معتقله المتسع لترمي نفسها في سجن ضيق، يحاول اجتذابها،

للبحـر غوايـة مـن نـوع خـاص، ترفـع رأسـها وتغمـض عينيهـا، تتمنـع عليـه، يأتيهـا الشـاب مـن خلفهـا ويهمـس «ربـتي!»، تفتـح عينيهـا وتـسرح الطـرف فيـه، يجثـو عـلى ركبتيـه، يقـول «أحبـك»، نظراتهـا مسـلطة عليـه، صمـت طويـل، عظامـه تـأن مـن إطالـة الركـوع، تشـير بسـبابتها حـتى ينهـض، يقـف بجوارهـا، فتديـر لـه رأسـها، يبـصر يدهـا اليـسرى عـلى مقربـة منـه، ينحـني في صمـت، يهبـط بشـفتيه ويصـلي عـلى ظهـر يدهـا، تقشـعر لحظـة، وتسـحب يدهـا اليـسرى في غمضـة عـين، وتـنزل باليمـنى عـلى خـده بصفعـة مدويـة.. تقـول «الربـات غـير قابـلات للمـس يـا أحمـق!» ، يـدر لهـا خـده الأيمـن!.

تتمـدد عـلى رمـال الشـاطئ لابسـة نظـارة سـوداء، مسـامها تسـتقبل أشـعة الشـمس لتكسـب جلدهـا السـمني لونـاً ذهبيـاً، يلتقـط بعدسـته صـوراً بأوضـاع مختلفـة، تتمـرغ في الرمـال ويتابعهـا بكاميرتـه، روحـه تنسـل مـن مسـامها، تريـد التسـلل لدواخلهـا، النـوم بـين ضلوعهـا، المايـوه يكشـف عـن جـل جسـمها، يـود لـو سـجد في محرابهـا الشريـف الآن، لكـن للتلامـس ضريبـة يخـشى دفعهـا، تومـئ لـه بإصبعهـا ليتوقـف، يحـني رأسـه مطيعـاً، تقـوم وتركـض نحـو المـاء، تعطيـه ظهرهـا وتدخـل في نوبـة ضحـك هسـتيرية، شـيطان حماقتـه يغويـه بالإقـدام، يقاومـه، تسـتدير وتلتقـي الأعـين، تنحـني بحركـة راقصـة فتكشـف عـن نصـف نهديهـا الأعـلى، الحـرارة تتـسرب لدمـه، تديـر ظهرهـا مـن جديـد، فيضـع الكامـيرا عـلى الرمـال، يمـضي بخطـوات خائفـة، تلمـس أقدامـه ميـاه البحـر،

يقــاوم المــوج الواهــن، تستشــعر اقترابــه، تلتفــت فيعانقهــا بشـدة، تذهـل، وتعتريهـا قشـعريرة مفاجئـة، يحـس بارتجافهـا فيضمهــا أكــثر ويقــترب مــن شــفتيها ويأخذهمــا بــين شــفتيه ويقبلهــا بشــبق، تــأن مســتمتعة حــتى يتركهــا، العــرق يهبــط مــن جســديهما، يلهثــان، تنظــر بإعجــاب وتقــول بعدمــا تســترد أنفاســها «لنــتزوج!».

* * *

ينـام كل ليلـة وحيـداً في غرفتـه، رغـم الـزواج منهـا لـم ينعـم بليلــة واحــدة جوارهــا، يشــعر بالجنــون، لــذة العطــاء إن لــم تقـدر عـلى الأقـل تفقـد قيمتهـا، يـذوب فيهـا كقطعـة ثلـج لكنهـا تتمنـع، تجعلـه واقفـاً عـلى جبـال الأعـراف، تخـبره «مـن يعشـق فعليـه أن يقـدم كل شيء ولا ينتظـر أي شيء».. يتفـانى أكــثر، يقــول متوســلاً «لقمــة اهتمــام أعيــش عليهــا!».. تجيبــه مبتســمة «يكفيــك إطــلاق سراحــك في مملكــتي!».

الشـوق يفتـك بـه، يضـع غطـاءً عـلى جسـمه ويحـاول النعـاس، الكوابيـس تداهمـه ويسـقط الغطـاء فيهـب مذعـوراً، ويركـض نحــو غرفــة زوجتــه، تقــع عينــه عليهــا فيأخــذ نفســاً عميقــاً، ويقفـل عائـداً لسريـره ويرتمـي عليـه حانقـاً، دقائـق ويغفـو، يمر الوقـت ويسـقط الغطـاء فينتفـض صارخـاً ويهـرول مـرة أخـرى لغرفـة زوجتـه، يراهـا فتسـتقر روحـه المشـتتة بـين ضلوعـه، يرتمـي أمـام بـاب غرفتهـا وينـام طويـلاً!.

يدخل الحمام ليستحم، يملأ البانيو بالماء الساخن ويتمدد بداخله، يغمض عينه، يحاول بث الاسترخاء لعضلاته المتوترة، طعم القبلة الوحيدة يأبى مفارقة فمه، يتمنى معاودة الكرة، يسمع صوت باب الحمام يُفتح، يرجع ذلك للخيالات التي باتت تتراءى له هذه الأيام، صوت أقدام تدب على الأرض بوهن، يظل مغمض العينين، يد تمتد لشعره وتهبط الأنامل على الأذن وتنتحي نحو شفتيه، يشعر أنها هلوسة طارئة، يفتح عينيه فتتسعا عن آخرهما، الجسم المقدس عار أمام بصره، يتجمد مكانه، تأخذ فمه بين شفتيها وتقبله بحنو، ثم تدخل البانيو ويتحدا كتوأمٍ ملتصقٍ!.

يتحرك للذهاب لغرفته لكنها تستوقفه «نستطيع من الآن أن نتقاسم سريراً واحداً».. يبتسم، ذاته تُبعث مرة أخرى، يمضي نحوها مسارعاً، ويحملها بين ذراعيه ويمددها على السرير ليستلقي بجوارها، فتشد الغطاء عليهما ويذهبا في نوم عميق.

* * *

تمر الأيام، تحس في دخيلة نفسها أن خطباً ما ألم بزوجها فجعل السماء أرضاً، الكوكب الدائر في فلكها صار مداراً، كان الاقتراب منها يعني السقوط، وقد سقطت في مجاله الحيوي، تحنق على ذاتها، وتلعن الضعف الذي بات يعتريها حين قدومه، جمرة تحت رماد حين ينفخ فيها

تتوهج، تعض بنان الندم، وتقوم ذاهلة تتمشى في الصالة حتى يتهادى لسمعها صوت مفتاح يدور في الباب، تقع عينها على زوجها، تهرع نحوه لتعانقه، يضمها بجفاء، ويمضي نحو غرفة نومه، تتبعه وتنحني على الأرض مربعة ساقيها، وتخلع عنه حذائه، يقول «انظري في عيني، فإني أعشق نظرتك وأنت على هذا الوضع».. تلمع عينها بالدمع، تحمل حذاءه، تضعه في مكانه، وتقول ناقمة على نفسها «رميت نفسي في أحضان الشرير ووقعت في التجربة!».

تدخل الغرفة، الأنوار مطفأة، ضياء القمر يتسلل من النافذة، تهتدي على إثره للغطاء وتفرده على جسم زوجها وتتمدد بجواره ، تغلق جفنيها، لكنها تستيقظ فزعة على صوت الشخير، ترتجف من البرد بعدما كشف عنها غطاءها، زوجها يستحوذ على الغطاء بأكمله، تتحسسه، تود الاطمئنان لوجوده، المحسوس موجود، تظل يقظة طوال الليل، ولا تستطيع الذهاب لغرفة أخرى لتنام على راحتها، تخشى غضبه الناري، يحرق جلدها بضرب مبرح، تقوم حين شروق الشمس لإعداد الفطور، تعود به بعد قليل لتجده مستيقظاً وقد ارتدى ملابس الخروج، تضع الطعام أمامه فيدفعه بيده، تسقط الأطباق متأوهة، يصعقها بصوته الغاضب:

لا تفعلي دون أمر.

ترد مذعورة:

لكنني اخترت مفاجأتك.

نظراته تنذر بشر وبيل:

اختيارك في حدود أوامري!

تشعر بالحسرة، تقول باكية:

أريد الخروج

هنا منفاك الأبدي.

أنا لا أُحبس بين أربعة جدران

إذن فاخترق واحد منهم إن كانت لديكِ القدرة

لقد جردتني منها حين اتحدنا سوياً

لقد كان بإرادتك

كيف؟!

حينما تشاركنا سريراً واحداً.

اللعنة عليك!.

يخطـو نحوهـا، يلهبهـا بأنفاسـه الحـارة ونظراتـه الحارقـة، تسـتكين وتشـعر بقلـة الحيلـة، يرفـع يـده ويصفعهـا بقسـوة فتسـقط عـلى الأرض، يغشـاها الذهـول!، يتفحصهـا باحتقـار

ويقـول بصـوت قمـيء:

أنت لي!.

ثـم يخـرج مـن بـاب الغرفـة بخطـوات واثقـة، ويوصـد خلفـه بـاب الشـقة؛ بالمفتـاح!.

اللقطة الأخيرة

قذائف المدفعية تتدحرج على الصحراء، على الجيش الأخضر، كحبات الرمان... ترد الدبابات بدورها، وتطلق النيران... تبدأ المواجهة، الغبار يتصاعد، والدخان يغطي المكان... الكاميرا تغفو في عيني.

أخاف أن يفوتني الحدث، دقائق... ثم تقع عدستي على جسد امرأة... ذهول، صدمة، الدخان عماني، الغبار يسبب الهلاوس؟ّ... ممكن جداً.

تتضح الرؤية أمامي، متشققة القدمين، ممزقة الثياب، تمشي تحت الطلقات الطائشة، ودوي المدافع... يراها بعض جنود الجيش الأخضر، يتوقفون، فأركض ناحيتهم، أسجل لحظة نادرة... أسمع صوتها الممزق: «أين طفلي الصغير؟»... دهشة تامة!

تحتار من عيونهم المتسعة، وأفواههم المفتوحة، فتتجاوزهم... مذعورين!... تركض فجأة، فأهرول خلفها... تقف أمام أحد الدبابات، يخرج منها قائدها، تستعطفه بنظراتها:

أرجوك، انظر بالداخل، لعلك تجد طفلي الصغير!

يزعق، ويبصق عليها، ثم يعود مكانه، الدبابة تتحرك ناحيتها، أشد المرأة من ذراعها، قبل هرسها أسفل العجلات، تنظر لي مصعوقة، وتظهر عليها اللا مبالاة، تسألني عن سبب فعلي العجيب، اصمت مطأطأً رأسي، فتسيل دموعها... أحس بالعجز، أعانقها فجأة، فتريح رأسها على كتفي المتعب، سألتني بصوتها الناعم:

من يحارب الجيش الأخضر؟

الجيش الأخضر!

تملصت مني، مصدومة!... إجابتي أصابتها بالتخبط، الإحباط... فتدفعني بقسوة، وتشق ثوبها لنصفين، تصرخ، ثم تلقي بنصف ثوبها للجيش الأخضر خلفها، وتجري بالنصف الآخر ناحية الجيش الأخضر أمامها... ثم تلقي بنصف الثوب الآخر... تسمع بكاء طفل، أسفل قدمها، الانفجارات تعلو، صوت الطفل يخفت، فتهبط المرأة، أثبت عيني بداخل العدسة، تحفر بأظافرها الطويلة، كمخالب قطة في بطن الصحراء، أسجل اللحظة... حفرة صغيرة

تتسع، تتحمس، ثم تسمع نحيباً خلفها، تلتفت مترددة، المنظر مريع... قنبلة فوق رأسها... تحولت لحبات رمال، معتقة بالدم أمام عيني... قُطِع صوت النحيب.

* * *

أدخل لرئيس التحرير، قلبي موجوع، وعقلي تائه... منحته الشريط، وأخبرته بالحدث الغريب، لمعت عيناه الشرهة، وابتسم لي محيياً، انحنيت له ببرود، فتح الشريط، دقائق مرت، لم يجد سوى الحرب:

أين المرأة؟

أهرول نحوه، أشاهد الشريط كاملاً، أحتار، أتمزق، وأمسك برأسي المتصدعة، فيسندني الرجل، ويجلسني على الكرسي، أشرب من الزجاجة التي أمامي، ينتظر حتى اهدأ، ثم يمنحني ورقة... إجازة للراحة... أمسكها، وأقوم... ثم انظر له ساخراً، أمزق الورق، وارمها في وجهه، كدمها الذي تساقط كحبات الرمال أمام عيني، واسحب منه الشريط... سبابه يلاحقني... أغلق الباب.

* * *

في شقتي، أضع الشريط في الكاميرا، خائفاً، قلقاً... أجدها فجأة، اتجمد، يصحو عقلي، ويقهقه قلبي... أصل للثانية الأخيرة... كانت تبتسم، فابتسمت، ثم بعد لحظة،

كانـت......، بكيـت بشـدة، ثـم ألقيـت بالكامـيرا، ارتطمـت بالحائـط، فعـادت كدمهـا المتسـاقط عـلى حبـات الرمـال أمـام عيـني... أنـام... يتعـالى الشـخير!

حكاية هناء

كانـوا يجلسـون في صالـة البيـت، أبي وجمعـة وأمـه، رأيتهـم يرفعـون أكفهـم لأعـلى، ويهمهمـون بـشيء غامـض، تبعـه صـوت أبي الأجـش:

الشربات يا أم هناء.

دخلـت أمـي بعـد قليـل، عرفتهـا مـن ظهرهـا، حـين حجبـت بجلبابهـا عـني الرؤيـة، ثقـب البـاب ليـس كافيـاً للنظـر، أسـمع قهقهـات، صـوت أبي يجلجـل مـن جديـد:

زغردي يا ولية!

أطلقـت أمـي العنـان لحنجرتهـا، فأشـعر بقلـبي يتفتـت كأرغفـة الخـبز الـتي تقطعهـا أمـي لطيورهـا، تزغـرد، فترتعـد روحـي مـن المجهـول، تحمـل الصينيـة المحملـة بأكـواب الشربـات الفارغة، تعـود بهـا مـن حيـث أتـت، ارتمـت عـلى السريـر منهكـة القـوى،

استمع بعد دقائق لصوت غلق الباب، فآخذت نفساً عميقا.

دخلت أمي بعدها بلحظات، ابتسامة تتربع على فمها، انظر لها بترقب، فتضرب على كتفي مداعبة، وتقول بصوتها المنتشي بالسعادة:

افرحي يا هناء... اتقرت فاتحتك.

على من؟ «بخوف»

جمعة بن محمد أبو جمعة تاجر المواشي.

أنا لست بهيمة.

هو اللِّ يقدرك بالذهب، ويدفع فيكِ شيء وشويات، وينغنغك بالفلوس، يبقى شايفك بهيمة؟!

أنا لا أحبه.

بلا حب بلا كلام فارغ... الجوازة اللي تجوعك بلاها أحسن.

يا أمي، أنا أحب غيره.

قطع لسانك يا فاجرة!... أبوكِ لو عرف يقطع خبرك... وبعدين خلاص الرجل أخذ كلمة، وأبوك لا يرجع في كلمته أبداً.

حتى ولو على حسابي؟!

حتى لو على روحك نفسها!

انشطرت في هذه اللحظة لنصفين، الألم رهيب، والدموع متجمدة في جفوني، حاولت التمرد، فأسكتتني بنظرة وعيد حملت الكثير من المعاني، إما الحب والفقر والحرمان الأبدي من الأسرة، وإما الطاعة والاستقرار ورضا البيت، فحاولت الانتحار، لكن دوماً ما كانت تغلبني غريزتي، أحب الحياة مهما كانت تعيسة، أشعر بالذعر من سيرة الموت، قد يكون عيبي الوحيد في هذه الحياة، لولا ذلك... لكنت الآن فوق السحاب!

* * *

تزوجت جمعة في النهاية، دمعة القهر في عين حبيبي تطاردني من وقتها لليلة الفرح، لقاؤنا كان سيئاً على كل حال، شيعني بابتسامة ساخرة، كأنه يعلم مصيري القادم؛ حتى العاشق يشمت في معشوقه حين يغادره!... لا شيء يبقى على حاله في هذه الدنيا.

* * *

احمرار عينيه يخيفني منذ جلستنا الأولى حين خطبتنا، ظننتها في البداية التهابات، رعشة ذراعيه دون إرادة منه في بعض اللحظات، مشيته التائهة ونظراته الزائغة تثيران حيرتي، قالت لي أمي عندما أخبرتها بشكوكي:

عنـده عربيـة آخـر ألاجـة، وشـقة بـراح في منطقـة نظيفـة، وتقولي عنـه.... ، ملكيـش حق!

في ليلـة الدخلـة، بـدأت الصـورة تتضـح، ورقـة مـن فئـة الخمسـين جنيـه، لفهـا واستنشـق شيء أبيـض كالبـودرة الـتي أنثرهـا عـلى وجهـي، نظـر لي باسـماً، ثـم أسـند رأسـه عـلى كـرسي الأنتريـه، ونـام... نـام حـتى طرقـت أمي البـاب، صبـاح اليـوم التـالي!

* * *

سألتني أمي عما حدث، أخبرتها:

كل شيء على ما يرام.

دخـل علينـا زوجـي بعينـين تائهتـين، وابتسـامة سـاذجة، سـلم عـلى أمـي وتـرك أبي وحـده في الصالـة، خرجـت أمـي مـن البـاب، تبتسـم في وجهـه متوتـرة، فتبدلـت ملامحـه، تخـرج مـن الغرفة، فيظـل سـاهماً طيلـة القعـدة، حـتى غـادرا البيـت، فجذبـني مـن شـعري صارخـاً، ونـزل عـلي بالـضرب زاعقـاً:

كيف تخبريها بسري يا فاجرة؟!

بـدل مـن البـكاء والدفـاع عـن نفـسي أمامـه... قهقهـت بشـكل هيسـتيري!

* * *

ظل على حاله المنيل طيلة ٣ شهور، وما زاد الطين بلة، السرنجة التي صار يغرسها في وريده، فبدأت أحس بالخوف، كنت أستطيع تحمل الهم لوقت أطول، لكن حياتي باتت مهددة... قررت طلب الطلاق.

* * *

استيقظت صباحاً، رأسي ثقيلة، والرؤية أمامي مشوشة، كوب برتقال تقدمه لي حماتي، أتناوله على مرة واحدة، الجدران حولي بيضاء، عيني تغفو لا إراديا، أحاول فتحهمها، أقوم من على السرير ذو الملاءة البيضاء، أسقط أمام حماتي، فاقدة الوعي، يُفتح الباب فأراها برفقة ممرضة، تمنحني ورقة... اقرأها، فتبتسم لي شامتة... ورقة طلاقي... أعي ما حدث، منوم، مستشفى... أين غشاء بكارتي؟!... أصرخ، فتضع يدها على فمي والكراهية تنبع من عينيها، تقول:

ابني سيد الرجال!

تتركني، وتمضي من أمامي... أذهب بعدها لبيت أبي... أشعر بالانطفاء... عتمة تامة!

* * *

ضربت أمي على صدرها حين رأتني وورقة الطلاق في يدي، نفخ أبي دخان سيجارته غاضباً، أخذتني أمي لغرفتها، أخبرتها بكل شيء، تبلع ريقها بصعوبة:

مدمن، شمام «أقول بقهرة»

كل الرجال شمامين بطريقة أو بأخرى.

تصدمني... ثم تخرج، وتغلق خلفها الباب

* * *

رأيـت أبي بعـد أيـام، يـضرب الأرض بقدميـه، ويزعـق عـلى الفـاضي والمليـان... خلـق أمـي يضيـق ناحيـتي، تنتهـز الفـرص لتهتـك نفـسي المستباحة، فيفيـض بي الكيـل... اسـألها عـن سـبب كل هـذا:

جعلتِ سمعتنا على كل لسان.

إنه مدمن. «أقاطعها»

جلبتِ لنا العار

كنت عذراء لم يمسني.

إيه؟!

سقتني أمه منوماً حتى تفض بكارتي!

أنـتِ كذابـة، عـاوزة تخفـي عـارك، لـو كان كـده، كنـتِ عرفـت وقـت مـا شـوفت ورقـة طلاقـك!

كنـت عـاوزة أستره، لكـن لـو عـلى العـار، فالعـار جـاء لكـم لما

قبلتوا بالشمام!

اخرسِ.

ابتلعت قهرتي في صدري، وكتمت الدموع في عيني، تقف أمي فجأة:

ممنوع الخروج هذه الأيام.

اصمت فتضيف:

صحيح كنا نعرف أنه شمام، لكن المال يحلي كل شيء!

كانت الضربة القاصمة!

* * *

حزمت حقائبي، وتسللت ليلاً من البيت، وصلت لموقف دسوق، وركبت الميكروباص الذاهب للقاهرة، مضت دقائق كساعات، أخاف ظهور أبي، أخيراً تأتي النجاة.

يلا ياسطى دور... الميكروباص كمل.

أنظر خلفي، أرى وجه أبي على بعد أمتار، أشعر بالذعر، فينطلق الميكروباص، يتلاشى وجه أبي... ابتلعته سحابة غم... والآن؛ ما زلت اسأل نفسي في حيرة... هل ما رأيته كان وجه أبي أم أنه شُبه لي؟!... لا أدري!

قصة كلب

الطريـق موحـش في هـذا التوقيـت، عـار مـن المـارة، أسـير وحـدي مهتديـاً بـرذاذ النـور المنبعـث مـن أعمـدة الإنـارة، يتسلل الـبرد إلى عظامـي، ارتجـف، ويمسـني الخـوف، الشـذوذ عـار، والمتخلـص مـن العـار بـريء، مهـدد ومطـارد أنـا، أبحـث عـن رفيـق يؤانسـني وحبيبـة تلملمـني مـن الشـتات، أقـذف خـوفي في جوفهـا المشـتعل فأتدفـأ، وتمحـق عـن جسـمي زمهريـر الـبرد، لكـن الطريـق شـاق وطويـل، وقـد أوشـك جهـدي عـلى النفـاذ.

* * *

بضعـة كلاب يتعاركـون بـضراوة، أنيـاب تُغـرز ومخالـب تُنشـب، نبـاح يعلـو في الأفـق، دمـاء تنسـل مـن الجلـد، وتأوهـات تنبعـث مـن الأجسـاد المنهكـة، يطأطـئ الجميـع رءوسـهم عـدا واحـد، يرفـع ذيلـه مختـالاً، لمعـة ظفـر تـبرق مـن عينـه، يتقـدم نحـو الكلبـة بخطـوات واثقـة، تمنحـه ظهرهـا.. يعتليهـا.. يسـتمع

الـكلاب تأوهاتهـا وهـم مطأطئـو الـرءوس!.

أخبرني جدي «حينها كنا نستطيع مواجهة البرد!».

* * *

أحــاول اختــلاس قبلــة مــن حبيبــتي، تبتعــد برأســها، وتــزوم غاضبـة، شـوقي فيضـان وسـدها يشـعرني بالاختنـاق، قـد يكـون تمنعهـا دلالاً، أحـاول.. تنبـح، وتجـز عـلى أسـنانها.

حرام.

لا أستطيع الانتظار

لست عاهرة.. ولا بد من شهود الكلاب أولاً.

هذا مصيرنا ولا دخل لأحد سوانا.

هذه شريعتنا.

ولكنني أحبك

فلتوفر لي ملجأ أولاً.

لا أملك المال.

إذن فالقبلات ليست للفقراء.

* * *

مطـارد في طريقـي، الـكلاب تتوعـدني وتهـددني في كل خطـوة، أمـام البيـوت الـتي بـدأت في الظهـور مـع سـيري، يحـاول الاعتـداء علي، بعض المحـاولات تنجـح وبعضهـا يفشـل، انظر لهـم بـود فيرمـوني بنظـرات محملـة بالبغضـاء، ازرع الحـب فأحصد المقت، يبيعون اتساع الأرض بأمتار منها، يعيشـون فيها بسلام، وأنا المشرد في البقاع.. يبدو أن التشرد مرادف للاتسـاع!.

* * *

أخبرني جدي «للدم لذة وللقنص مذاق، والمحارب لا يجد نفسه إلا في الاتساع!».

* * *

الـبرد يـزداد تحرشـاً بجسـمي، ارتمـي في أحـد حقـول القمـح، السـنابل تشـوكني، لكـن لا بـأس طالمـا السـماء تحيـط بي.

استيقظ فزعـاً عـلى ضربـات عصـا غليظة، آدمي ينظـر لي بغيظ، أتجمد مكاني، يسحبني من أذني بقسوة، لا أقاومه، سأمت من التجـوال، وطاقـتي قـد نفـدت، يصـل لبيتـه، يطلـب مـن امرأتـه بلهجـة آمـرة «اجلـبي لي الطـوق».. تأتيـه بـه هرولـة، يأخـذه مـن يديهـا، يضعـه في رقبـتي، صمـت تـام يشـملني، يربطـني في جـذع شـجرة تقـوم بجـوار البيـت، يمضي ويعـود بعـد دقائـق، يحمـل في يـده اليـسرى سـلكاً كهربائيـاً، وفي اليمـنى عظمـة،

يرميها بالقرب مني، الجوع طاغية، اخضع لسلطانه، أحاول الإمساك بالعظمة، قيدي يمنعني من الوصول إليها، يقهقه صاحب البيت ساخراً ويلسعني بالسلك فأتألم صامتاً، وانظر له مشدوهاً، تزداد قهقهاته، يقول «إن أردت الطعام، اطربنِ بنباحك».. أفكر لحظات، لا ينتظرني، وينهال على جسمي بالسلك مرة أخرى، يتواطأ علي جوعي مع ألمي:

هو هو هو هو هو هو هو .

يقرب العظمة مني، أطأطئ رأسي وآخذها بين أسناني، قهقهاته تعلو.. وتتسلل من عيني دمعة صامتة!.

الوهم

خـرج عبـاس مـن بيتـه محمـلا بكيـس بلاسـتيكى يحـوي بداخلـه كيلـو ونصـف مـن التفـاح الـذي يتخلـل حمـاره بعـض البيـاض، وقـام بتعليـق الكيـس في مقدمـة دراجتـه وركبهـا واضعـاً قدميـه عـلى البدالـين وأخـذ في قيادتهـا فركضـت نحـو وجهتـه حيـث القريـة الـتي تسـكن فيهـا أختـه.

يقـود عبـاس دراجتـه، الليـل كالفحـم ، ونفسـه ترتعـد خوفـاً، والقمـر في غيبوبـة، يقـترب عبـاس مـن الطبليـة، سـمع عنهـا حكايـات مفزعـة حيـث وجـود قبيلـة مـن الجـن تعيـش في الترعـة تـتزاوج فيهـا وتعبـث بـكل مـن يحـاول المـرور عـلى هـذا المـكان ليـلا، لا يعلـم إن كان هـذا صحيحـا أم مزحـة يروجهـا النـاس عـلى الفـاضي والمليـان.

صفـير الريـح يـضرب الشـجر فيبعـث صوتـا كالعـواء، يـزداد خـوف عبـاس كلمـا اقـترب، يصـل للمـكان الموحـش، يشـعر

بشيء صلب يضرب أقدامه ويرتطم بمقدمة الدراجة والبدالين، فيحس عباس بعاصفة جامحة من الخوف تجتاح كيانه ويقشعر جسده حتى أن شعر جلده قد انتصب فزعا، فأخذ يبدل بكل ما أوتي من قوة، فانطلقت الدراجة كالصاروخ وما زال ذلك الشيء الصلب يضرب الدراجة ويأبى التوقف، فيخشى عباس من التعثر حتى لا يحدث له ما لا تُحمد عقباه، يلعن نفسه مئات المرات لأنه خرج من بيته لزيارة أخته ناعتا نفسه بالحمار، فلم يكن ليحدث شيء لو أتاها بالتفاح باكرا ..

يقترب عباس من الوصول لبيت أخته بعد عبوره للترعة والأراضي الزراعية حيث يخيم الظلام والوحشة عليهما توقف الشيء الصلب عن ملاحقته، يزفر في ارتياح حتى يصل بيت أخته، يجد عزيزة سلفة أخته، تظهر على وجهها ابتسامة مشرقة، تقول مرحبة :

ايه يا اخويا، جاي عرقان كدة ليه في عز البرد وبتنهج كأن حد بيجري وراك؟

يرد عباس وهو يجفف عرقه بكم جلبابه، ويأخذ نفسه واحدة واحدة:

اسكتي يا عزيزة ياختي، مش اللي يتسموا بجاز وسخ كانوا هيطلعولي.

تضرب عزيزة بكفها على صدرها في ذعر، وتقول:

ازاى بس يا أخويا، ولاد الهرمة عملوا فيك ايه؟

يسترد بذاكرته ما حدث منذ قليل:

والله يـا عزيـزة ولاد الصرمـة وأني جـاي بالعجلـة كانـوا عمالـين يمسـكوا فيـا مـن رجـلي وعاوزيـن يخلـوني أقـع زي البهيمـة علشـان يركبـوا عليـا ويـوروني الويـل، بـس ربـك كريـم وخلصـني منهـم.

الحمد لله.

ثم تواصل مستفسرة:

بـس ايـه اللِّ جابـك كـدة عـلى مـلا وشـك، كنـت استنيت لبكـرة ولا الدنيـا طارت؟

ينفرج فوه عباس على ابتسامة صافية تنم عن طيبته:

أصـل كنـت جايـب تفـاح وقلـت أخـتي شـادية لازم حنكهـا يدوقـه الليلـة.

ابن حلال مصفي يا خويا، ألا هوا فين التفاح صحيح؟

تـرف عـلى وجهـه ابتسـامة وديعـة، يمـد يـده ليلتقـط الكيـس الـذي علقـه في مقدمـة العجلـة، يمسـكه .. يتجمـد، حـين يجـده فارغـا، يتحسسـه بحـيرة، يجـد الكيـس قـد خـرق مـن دبـره، تنظـر لـه عزيـزة وهـي تكتـم ضحكـة مجلجلـة في جوفهـا:

ألا فين التفاح يا اخويا؟

يـرد وقـد اختلطـت في داخلـه المشـاعر مـا بـين الحـزن لفقـدان التفـاح ومـا بـين الضحكـة المعربـدة الـتي يـود إطلاقهـا مـن داخلـه:

الشياطين كلته!! ..

الكاتب

الأمر يبدو مريعاً، قلق شديد يفتك بي، ينتابني الخوف بين فينة وأخرى، أخشى من النهاية التي تفغر فاها لابتلاعي، فللنجاح ضريبة، وما بعد القمة تبدأ الرحلة للقاع!.

كان نجاح روايتي الأخيرة باهراً، أحس بماهيتي ترتفع فوق البشر، مدلول أفلاطوني يولد وينمو وينضج، لكن النضج بداية الموت!.

أناقش الرواية في إحدى الندوات، النظرات المنبهرة تحلق كأنجم فوق رأسي، على يميني يجلس ناقد شهير، وعلى يساري الناشر المجنون، لا يراهن على قلمي سوى رجل ذي جنة!، فالسمين في زمن الغث لا يعول عليه!.

أزهو بنفسي بعد المديح الذي هبط علي كالوحي، أشعرني بالقيمة والتفرد، ونقطة اللا رجعة تغازلني من بعيد، أخبرتني امرأة في الندوة «كيف جعلتني أداعب النجوم في روايتك!»... جملة لا تخرج إلا من فم امرأة!.

خرجت فرحاً وبدأت مسيرة البحث عن فكرة روايتي الجديدة، شيء ما في داخلي يردعني عن المضي قدماً في هذا الطريق، التوقف يضمن النجاة!... أخرسته أو صممت أذني عن النداء، الحمقى لا يسمعون وربما الآلهة!.

تمر الأيام، وحالتي تسوء، الأفكار مكررة، والجنة صارت خاوية على عروشها... الفلاحون حصدوا بمنجلهم الورود ولم يبقَ سوى القمح، القمح يتسبب في نزول الفضلات!.

أجلس في غرفتي، أمزق الورقة تلو الأخرى، أصرخ بغيظ، التوتر، ثورة عنيفة تضرب صدري، فأحاول كبتها فتزداد عنفواناً، أمسك الكوب الذي أمامي على النضد وألطمه في الحائط، فيتهاوى باكياً ليطلعني على حقيقة الألم ويشهدني على جرمي الشنيع!، فأهرب من إثمي وأتسلل للغرفة الأخرى، انظر للمرآة « من أنا، صورة، ظل، أم مدلول؟!... لكن المدلول لا ينعكس على قعر المرآة!»... فيجتاحني الغضب واضرب رأسي في المرآة فتتهشم، ويهبط الدم من جبهتي بغزارة، فأسقط واتيه في الضباب.

أستيقظ في مشفى على ابتسامة تلوح على ثغر امرأة، غاويتي التي يتلاقى منبعي بمصبها فيجري النهر ولا يتوقف على الانسياب، وجدتني ملقى في غرفتي كالجثة الهامدة، صرخت للوهلة الأولى، ثم ما لبثت أن أخرجت هاتفها واستدعت الإسعاف... الشاش على رأسي، فتقول وهي تمس كف يدي.

حمد لله على سلامتك حبيبي.

انتفض صارخاً فتتراجع.

وجدتها!.

تذهل، وتنظر لي بريبة.

ماذا وجدت؟!

ما زالت هناك وردة لم تقطف بعد!.

* * *

جلست في غرفتي ممتنعاً عن كل شيء، غاويتي ستخرجني من البحر وأنا أريد البلل، ستمنحني رعشة البرد وأنا عار على رمال الصحراء، الاعتزال ضرورياً حتى تكتمل الدائرة..

أمسك القلم، يتوغل في صدري، يستبيحني ويتفحش في دواخلي، لا أستطيع مقاومته، يرقص فوق آلامي ويبكيني من لوعة الحبور، ألعنه وأسب وردتي، فيسخر مني مقهقهاً «ارمني إن استطعت!»... اطأطأ رأسي واسترضيه، فيرفع رأسه ويهمس في أذني « أنا الأزل، والخلود!».

أتقافز من السرور، وآخذ نفساً عميقاً، أستمع لموسيقى راجح داوود، أريد أن يكون القتل شرعياً، يميتني ويحييني في لحظة، أصرخ عند نهاية «البسكاليا»، وأكتب آخر كلمة في

روايـتي «انتهـت»... أدور حـول نفـسي كالدرويـش.

قـرأ النـاشر الروايـة وأخـبرني حـين لقاءنـا أن العمـل سـيضمن لي الخلـود، أردت البصـق عليـه، أحدفـه بفنجـان القهـوة الـتي أمامـي، لـم يـدرك أنـه يمنحـني إشـارة الرحيـل، أردت أن أكونـه، ذلـك الـذي يسـخر مـني!.

كان نجاح الرواية غير مسبوق، وهاتفني الناشر.

الرواية ترشحت لأهم جائزة عربية.

لا تكمـل فهـي لي!. أعلـم أن الجوائـز ليـس لهـا معايـير منصفـة في الكثـير مـن الأوقـات، لكنـني أدرك أن الروايـة بهـا روح ماجنـة، غاويـة سـيطأطأ لهـا المحكمـون رغمـاً عنهـم، إنهـا للجميـع وليسـت لواحـد فقـط، وهـي لواحـد فقـط وليسـت للجميـع!.

* * *

ذهبـت برفقـة النـاشر يـوم حفـل توزيـع الجوائـز، هادئـاً وبـارداً كالثلـج كأنـني أعلـم الغيـب، بارقـة مظلمـة!، نجلـس سـوياً ويمـضي الوقـت، يتوتـر النـاشر ويرشـح العـرق مـن مسـامه حـين إعـلان النتائـج، ابتسـم سـاخراً مـن منظـره، ويُنـادى عـلى اسـمي فيـصرخ النـاشر فرحـاً ويصفـق الحـاضرون، يعانقـني بشـدة، ويشـيعني نحـو جائـزتي!، أمـشي بخطوات واثقـة وأصعد للمـسرح، يصافحـني رجـل وامـرأة لا أعرفهمـا عـلى وجـه الدقـة، يمنحـني الرجـل شـهادة وشـيكاً بمبلـغ وقـدره، وتمنحـني المـرأة

الـدرع فأتمـنى لـو أعطيتهـا التـاج!.

أمسك الميكروفون وأقول بلهجة باردة:

الليلة تنتهي الرحلة!.

ثـم نزلـت وسـط تصفيـق الجميـع وتهليلهـم المبالـغ فيـه، الدهشـة تكتنـف وجوههـم، يـضرب النـاشر عـلى كتفـي مشـجعاً والبسـمة تفـترش شـفتيه، فأخبرتـه وأنـا أهـم بالمغـادرة حـتى لا أكـون مشـاعاً لمصافحـات الحضـور والكامـيرات المترصـدة.

لا داعي للمبالغة!.

عـلى بعـد خطوتـين مـن بيـتي بعدمـا تركـت الحضـور في قمـة الذهـول، أديـر المفتـاح في البـاب، أفتحـه وأدخـل، ألقـي نظـرة أخـيرة عـلى الشـارع، تولـد عـلى ثغـري ابتسـامة الـوداع، ثـم أغلـق البـاب!.

* * *

تصـل الغاويـة البيـت، تنـادي عليـه ولا مجيـب، تفتـش عنـه في الغـرف، تتعـثر خطواتهـا فجـأة وتسـقط عـلى الأرض، تذهـل!... تـرى رقبتـه في وسـط الدائـرة، وصورتـه مشـوهة في المـرآة المهشـمة!... تـصرخ، ثـم تركـض نحـو بـاب الخـروج، باحثـة عـن الهـرب مـن المنظـر البشـع!.

سودان

اسمي سودان، اختاروه ولم أختره، أعيش بين الحلم والواقع، السودان هو البلد الذي ولدت به وسميت لأجله، أحببت هذا المكان .. عاطفة الحب للمكان الأول كالحب الأول، وتد مستقر في الأرض. ومن مخاض هذا المكان ولد حبي الأول والأخير، كانت الأرض ملكنا والسماء تظللنا، نشعر أن الدنيا لم تخلق إلا لأجل عشقنا.

حرارة الشمس الحارقة تلهب جلودنا، نجد السير لنصل للمرعى الخصيب، نأكل ما يملأ البطون .. أخبرتها أن ضلوعي كالمرعى، ابتسمت فأشرق الكون من ثغرها .. ثم جلست وقد بدا عليها سيماء الإرهاق:

أتعبتِ؟

هذه هي الحياة.

هززت رأسي موافقاً.

كانت محققة، أعيش هنا في محمية طبيعية، واسعة وتضيق علي، الهواء شحيح، والأرض لم تعد ملكي والسماء صارت غريبة علي.

كل شيء يأتيني بسهولة، رغباتي تلبى بأسرع وقت، لكني لا أستطيع رفع رأسي، حين يقدم لي الطعام، أزهق!

«حاولوا في الآونة الأخيرة أن يأتوني بأنثى حتى أضاجعها فأحافظ لهم على سلالتي من الانقراض، رفضت اقتراف الجريمة»

غريب أمر هؤلاء البشر، يهملوك أولا وحينما تلفت نظرهم يقتلوك، وعندما توشك على الهلاك يحبسوك تحت حجة الحفاظ عليك ورعايتك، اللعنة على هؤلاء الأوغاد .

لم أقترب من الأنثى، ما زالت حبيبتي مستقرة في سكنات نفسي وأعماق ذاتي، وعدتها أنني سأخلص روحي لها حتى الممات، سأظل على وعدي، فالوعد سمة الأحرار.

أشعر باقتراب نهايتي، لذلك أحس بالزهد، كلما تتأجج الرغبة بداخلي أخرسها تحت نداء الحب، لكن احتياجي لأنثى يتزايد فأتساءل، وماذا بعد؟ هل أشتهيها؟ أخاف الندم، اقرر حين تلمع في ذهني الذكريات.. لست إنساناً حتى اشتهي امرأة لا أشعر بها!.

مسكين هذا الذي يعيش وحيداً دون حبيبة تؤنسه وصديق

يسنده، أحنق على الذي أتى بنا لهنا، لماذا قضى علينا وتركني وحيداً؟، لو أنزل صاعقة فحرقتنا جميعاً لكان خياراً جيداً، على الأقل ما كنت بمفردي، الوحدة لعنة لن يفهمها إلا الذي أُجبر على عيشها، فلماذا نحن من بين الأجناس الذي قررت التخلص منها وإنهاء هذه الملهاة السخيفة؟، ولماذا قررت الاحتفاظ بي وحدي .. أتريد أن تشاهدني في عرض مونودراما قبيح حتى تقهقه على تمثيلي القميء، أي شناعة هذه .. قلبك حجر.

النهاية تقترب، أرى ذلك في عيون السيد، أبتسم هازئاً على هذا الأبله، أنفاسي تختنق، شيء خفيف يتسرب من داخلي، كلما مر عضو جعله ساكناً كأن الحياة لم تكن تدب فيه منذ لحظات، تجاوز نصف جسدي فصرت مشلولاً لا ألوي على الحركة .. يزحف نحو حلقي، أغمض عيني، ظلام ... ظلام دامس .. ثم .. ينكشف النور! .

ثالوث الموت

رجـل ببـشرة حنطيـة، يعتـق الشـمس في جسـمه الصخـري، غـارق في بركـة دم، بعينـين جاحظتـين، وبجانبـه... طيلسـان، وصولجـان!

* * *

دخـل طاهـو قـصر رادوبيـس، الواقـع عـلى جزيـرة باجـة، وجهـه معفـر بالـتراب، يبـدو عليـه الأسى، يقـول حـين يـرى رادوبيـس، بخطواتهـا الخائفـة:

لقد قُتِل الملك.

صدمـة، تمـزق، نحيـب... يربـت طاهـو عـلى كتفهـا، يتفتـت قلبهـا كرمـال الصحـراء، فتدمـع عينـاه، ويزفـر متألمـاً... ترفـع رادوبيـس رأسـها إليـه، الدمـوع تشـوش الرؤيـة... تسـأله:

أريد رؤيته.

يرد بقلة حيلة:

الموتى لا ينكشفون إلا على أزواجهم!

أرادت البصق على نفسها في هذه اللحظة!

* * *

عـاد بنامـون لقـصر رادوبيـس، يفصلـه عـن العشريـن خطـوة واحـدة... سـعيد، مشـتاق، قلبـه يزغـرد، سـيرى رادوبيـس، يمسـه خـوف حـين يبـصر وجههـا العابـس، تعلـو وتهبـط عـلى أرجوحتهـا كالسـحاب، نظراتهـا زائغـة، لا تلتفـت لصـوت بنامـون الزاعـق، حـتى يمسـك بالأرجوحـة فتتوقـف، تنظـر لـه فيبتسـم... يسـجد تحـت قدميهـا للحظـات؛ ثـم يرفـع رأسـه ناحيتهـا، وجههـا جامـد، كالتمثـال الـذي صنعـه لهـا مـن روحـه، يخبرهـا بوصـول رسـالتها لملـك النوبـة... صامتـة، يظـل هلعـاً لدقائـق، تتحـرك شـفتاها بصعوبـة:

لقد قُتِل الملك!.

تنفـرج شـفتاه، وتلمـع عينـاه... يجهـش في البـكاء، ويرتمي برأسـه في حجـر المعشـوقة؛ رادوبيس!

* * *

لماذا قتلوه؟

ليس لنا يد، قُتِل بسهم غادر لم نعرف مصدره.

أجاب الكاهن الأكبر رادوبيس بملامح جامدة، ونظرة متشفية... رأته في آبو بعد تحنيط الملك مرن رع الثاني رفقة خادميه الأحياء!... أهالوا عليهم التراب، رفعت كفها، لتدعو أوزير أن يخفف ميزان الملك، ليضعه الإله رع كنجم الصباح في وسط حقول الايارو.

أضاف الكاهن الأكبر:

الملك خان الوطن.

لأنه أراد الصلح مع الأعداء؟!

كانت رسالته تحمل الهوان... أراد لنا التنازل عن بعض الأرض.

هذا كذب

بل هذا ما كان في الرسالة!

تصمت للحظات، ثم يبرق في عقلها فجأة... وجه بنامون!

* * *

تجلس في غرفتها، آشعة شمس الأصيل تداعب جبينها، تحاول التفكير بهدوء، التخلص من الشوائب الجاثمة على ذهنها... بنامون، الرسالة، وقتل الملك.

أحست حين رأت الكاهن الأكبر، أن يده ملوثة بدماء الملك، قال عنها في البدء «عاهرة!»... أهاج الناس على الملك، أراد إشعال النار «يريد القصر ونحن نريد الإله».

رادوبيس مقصومة نصفين، بين العشق والواجب، يتجسم أمامها طيف بنامون، بابتسامة هازئة، تشمت من أحزانها، تهرول نحوه، تزعق في وجهه، لا يتحرك، تصفعه، ترتطم بالفراغ... فترتمي على السرير، جسمها ينتفض... طرقات على باب الغرفة، تركض نحو الباب فزعة، تفتحه... كان وجه بنامون الحقيقي، ببسمته البريئة، ووجهه الهادئ، تشعر بالحيرة للحظات، تصفعه بشدة... يرتطم كفها بالحقيقة... ترتمي في أحضانه الذاهلة!.

بنامون

يذوب، يتلاشى، يفنى داخلها... تنظر في عينيه، في حالة من التيه، تقول هامسة:

نتزوج، ما رأيك؟

لسانه متخشب... يهز رأسه موافقاً... بطريقة هيستيرية.

* * *

دخل عليها طاهو غاضباً، يضرب بحذائه الغليظ حشائش الحديقة، تراه رادوبيس، تتفحصه بنظرة طويلة، حين يقف

أمامهـا خاشـعاً، تقـول سـاخرة:

ماذا بك يا قائد حرس الملك؟

ملامحـه فاضحـة، يتلعثـم، يتنـدى مـن جبهتـه العـرق، يتحـرر اللسـان:

بعد كل ما حدث، تريدين الزواج بهذا الطفل؟!

ضحكـت، فعبـس... رفعـت رأسـها، فانحـنى... غـراب ينعـق فـوق رأسيهما، شـمس النهـار تذهـب لمخدعهـا، يقـول يائسـاً:

كنت لي قبل الملك... وقد رحل الملك!

تقهقه، وشعرها يتمايل على نسيم الغروب:

رادوبيس لا ترمي صندلها، ثم تعود لانتعاله مرة أخرى!

اسـود وجهـه، غضبـان... أراد دفنهـا مكانهـا، لكـن قلبـه المتيـم انتـصر، فأحـنى رأسـه مـن جديـد... روحـه تحـترق، ولحـم وجهـه يـكاد يتسـاقط مـن لهيـب الإهانـة... يمنحهـا ظهـره، ويسـير ناحيـة بـاب الخـروج... يلتفـت لهـا فجـأة تحـت تأثـير الصدمـة:

بنامون لم يسافر لملك النوبة!

تنظر له ذاهلة!... يدير لها رأسه... ويواصل المسير!

* * *

بضع نساء يقدمن الذبائح في المعبد، دماء تسيل على الأرض الصخرية، يتلو خنوم حتب الكاهن الأكبر بعض الأدعية، راكعات في خشوع، يبدو عليهن تأثر كبير، يباركهن بيده اليمنى، ويتمتم بصلوات خافتة، تدخل عليه فجأة رادوبيس، بحلة بيضاء، وصندل ذهبي، يراها الكاهن، يغرق في شعرها الفاحم... يتوتر، يتلعثم، فيحاول التماسك... يصرف النسوة بإشارة من يده، ويصطحب رادوبيس لقدس الأقداس... نور خافت ينبعث من المشاعل، يقفان أمام المذبح، تبرق عيناها في صدره، يقول لائماً:

تتركين الرجال لأجل شاب ما زال يبول على نفسه!

بحركة مفاجئة، تخلع حلتها، ربة محاطة بالنور، لم يتمالك الكاهن نفسه، فسجد أسفل صندلها، كان جسمه يرتجف بشدة، ذهول تام يستولي على حواسه، يرفع رأسه نحوها:

تسجد لي في قدس أقداس إلهك؟!

نحن من نصنع الآلهة!

تبتسم، وتغمز بعينها، تعض على شفتيها، وتخرج لسانها كأفعى... يتعرق الكاهن، وتتسارع أنفاسه.

تريدني؟

يهـز رأسـه موافقـاً، فتفكـر رادوبيـس قليـلاً... مـا زال راكعـاً، تقـرب شـيئها مـن أنفـه، يعبـق رئتيـه مـن العبـير الغـاوي، ويغـرق في بحرهـا الهائـج... تضـع أناملهـا الرقيقـة عـلى صلعتـه اللامعـة:

من قتل الملك؟

يرتجـف أكـثر، فتدغـدغ مقاومتـه بأناملهـا الرشـيقة، المتجولـة عـلى وجهـه، تضيـف:

سأكون لك مهما كانت الإجابة!

نظـر لهـا، يحـاول تبـين صدقهـا... وجههـا فاتـن، وجسـدها قاتـل:

بنامون.

أحسـت بالصدمـة للحظـات، ثـم نظـرت لـه بغنـج، يـذوب مـن لهيبهـا... تضـع صندلهـا عـلى كتفـه، تغمـز لـه، فانهـال عليـه تقبيـلاً... هائمـاً. تسـحب سـاقها فجـأة، فنظـر لهـا مسـتعطفاً، فقالـت:

من دبر لكل هذا؟

طاهو، وكان علي فقط إثارة الشعب.

والرسالة؟

فتحهـا بنامـون وعـرف فحواهـا، فأخـبر طاهـو، وكان عـلي صياغـة واحـدة أخـرى، لتشـعل غضـب الجميـع.

غـم قاتـم يجثـم عـلى صدرهـا، ومقـت يـسري في دمهـا... تغتصب ابتسامة، ثـم تمنحـه قدمها هـذه المرة، وتقهقـه... فيـتردد صـدى صوتهـا في أركان المعبـد الكبـير!.

* * *

تدخـل عـلى بنامـون، يزخـرف الحجـرة الصيفيـة في قصرهـا، يزينهـا بروحـه العاشـقة، تقـف رادوبيـس خلفـه، وتنفـخ في أذنه، يلتفـت لهـا بنظـرة هائمـة، تضـع يديهـا عـلى كتفيـه:

أريد زجاجة من سم أبيك العجيب.

أحس بالقلق، الشك... يستفسر، فتجيبه بقبلة طويلة:

لاختبار براعة علم والدك.

يبتسم موافقاً، ثم يتيه في عينيها السوداوين.

* * *

رأس بنامـون أسـفل صنـدلي... هـذا شرطـي الوحيـد للـزواج منـك.

لمعـت عينـا طاهـو، تخيـل رادوبيـس في غمضـة عـين عـلى سريرهـا الوثـير، عاريـة، فهـز رأسـه مطيعـاً، يحـرك لسـانه،

تسكته بأنامهـا، فيقبلهـم... تقـول:

تذبحه أمام عيني.

هز رأسه ضاحكاً.

* * *

أخبرها بنامون حين أوشك طاهو على حَزِّ رأسه:

لم أكن أريد سواكِ.

ثـم تدحرجـت رأسـه أسـفل صندلهـا، فأخـذت نفسـاً عميقـاً، قالـت:

مسـاء الغـد تـأتي قـصري، سـوف أختـار بينـك وبـين الكاهـن الأكـبر.

صاعقـة!، حـاول الاعـتراض، أخرسـته بنظـرة وعيـد، ثـم مضـت وتركتـه حائـراً... صرخ غاضبـاً، فدهـس عـلى وجـه بنامـون بغيـظ، ثـم ارتمـى بجانبـه... وبـكى!

* * *

دخـلا مـن بـاب القـصر سـوياً، فتحـت لهمـا الخادمـة، رادوبيـس جالسـة عـلى عـرش مطعـم بالذهـب، ينحنيـان أمامهـا، ويقبـل كل واحـد منهمـا اليـد الممـدودة، ثـم يجلـس كل واحـد منهمـا عـلى جانـب مقابـل للآخـر... يبـدو الترقـب عليهمـا... تقـوم،

تتركهما لدقائق... تعود بثلاثة كئوس من الخمر، لكل واحد كأس، فتبدو الريبة في وجهيهما، فتضحك عليهما، وتبادل الكؤوس بحركات رشيقة ضاحكة، ثم تشرب كأسها، تقول:

أنتما في أمان الآن.

يبتسمان، يشربان كأسيهما، فتضيف:

والآن حان وقت الاختيار.

يتوتران، فتتفحصهما بعينيها، يطأطئان رأسيهما، فتشير للكاهن الأكبر فتبرق عيناه سروراً، ثم تشير ناحية طاهو، فتشعشع الفرحة في صدره... تقهقه، فيحسان فجأة بآلام في بطنهما، تتزايد في لحظات متتابعة... يقعان على الأرض، بنامون يمنحها زجاجة السم العجيب... يزحفان متأوهين، «يقتل في بضع دقائق»... تنظر لهما باحتقار:

كان بنامون على حق، فوالده بارع في صنع السم!

اقترب الكاهن من قدمها اليمنى، وقال لافظاً أنفاسه الأخيرة:

لم أكن أريد سواكِ، والمعبد أيضاً.

ومسك طاهو بقدمها اليسرى، روحه تفارق جسده:

لم أكن أريد سواكِ، وقصر الملك!

تجشآ سائلاً أبيض في نفس اللحظة، سقطت الرأسان للأبد،

نظـرت لهمـا رادوبيـس بتشـفي «لـم أكـن أريـد إلا المَلـك»... كتمـت آهـا صارخـة في جوفهـا... سـقطت بينهمـا... عـلى وجههـا شـبح ابتسـامة... ابتسـامة سـاخرة!

الفهرس

الأسانسير	٥
المُهزأ	١٥
التيه	٢١
الأحمر يبعث على الفتنة	٢٩
صراصير	٣٥
على واحدة ونص	٤١
أبي	٤٧
الكرسي البمبي	٥٣
الحضن	٥٩
امرأة في الجنة	٦٥
البواب	٦٩
الموتى لا يتكلمون	٧٧

مصدية	٨١
الغطاء	٨٧
اللقطة الأخيرة	٩٥
حكاية هناء	٩٩
قصة كلب	١٠٧
الوهم	١١١
الكاتب	١١٥
سودان	١٢١
ثالوث الموت	١٢٥

Willows House
منشــــورات
ويلوز هاوس